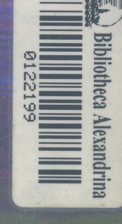
حَاجَة الإنسَانيّة

إلَى ظُهُورِ الإسْلَام

تأليف

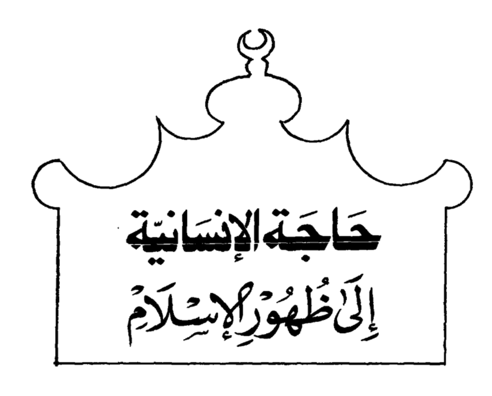
الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح







الدار المصرية اللبنانية


حاجة الإنسانيّة
إلى ظهور الإسلام

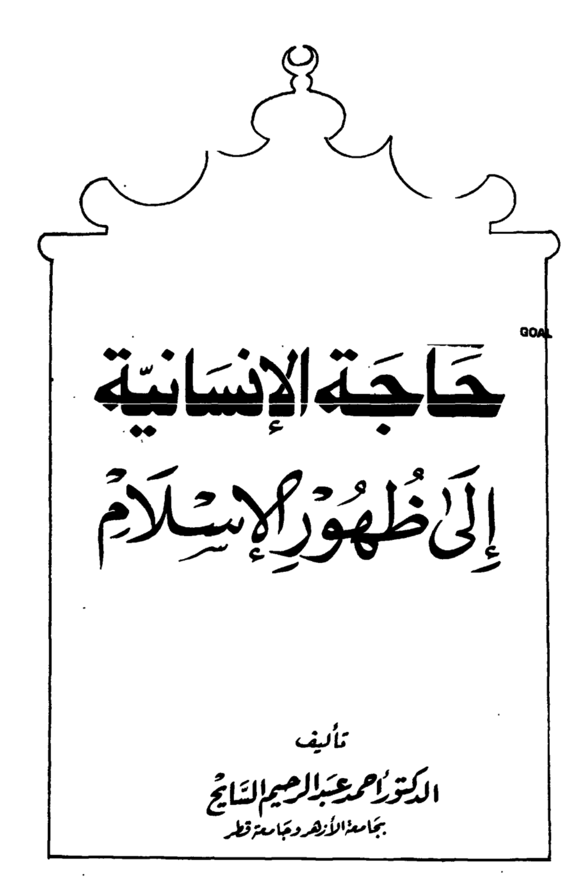


الدار المصرية اللبنانية طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ برقيا دار شادو - ص . ب ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING-PUBLISHING-DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT st p.o Box 2022- CAIRO- EGYPT PHONE 3936743-3923525 CABLE DARSHADO



حاجة الإنسانية إلى ظهور الإسلام

تأليف

الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح
بجامعة الأزهر وجامعة قطر

الناشر
الدار المصرية اللبنانية



مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الذي أنعم على الإنسانية بنعمة الإسلام ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، محمد رسول الله المبعوث رحمة وهداية للناس أجمعين .

أما بعد :

فلقد أشرقت شمس الإسلام بين شعاب مكة المكرمة في قلب الصحراء العربية ، ولم يمض على شروقها إلا قرن واحد : حتى انتشرت أشعتها في أجزاء كثيرة من مشارق الأرض ومغاربها .

وإن الباحث في انتشار الإسلام – من خلال الأحداث الأولى والمتأمل في تلك الأحداث ، التي سبقت وواكبت ظهور الإسلام – يجد أن العناية الإلهية واضحة كل الوضوح في اختيار الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليكون رسول الإسلام ، ومبلغه إلى الناس .

وواضحة كذلك في اختيار الأمة العربية لحمل رسالة الإسلام وأمانة الدعوة .

وواضحة كذلك في اختيار أرض الجزيرة العربية مكانا لظهور الإسلام فيها .

وواضحة كذلك في اختيار القرن السابع الميلادي ، أو الزمن الذي كان لظهور الإسلام فيه .

وواضحة كذلك في حاجة الإنسانية لدين يعرفها بمكانها ومكانتها .

وواضحة كذلك في أثر هذه الاختيارات والعوامل في انتشار الإسلام .

ولقد أظهر الواقع الذي مضى قيمة هذه الاختيارات والحاجة لظهور الإسلام

وانتشاره فيما مضى ، وفيما نحن فيه ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وسوف أعرض لهذه الاختيارات ، وضرورة الإسلام للإنسانية ، ثم أثر ذلك كله في انتشار الإسلام ، من واقع تطبيقاتها ، لنتبين الطريق في وقت اشتدت فيه حاجة الإنسانية إلى الإسلام .

إن الإنسانية تشهد صحوة إسلامية تشد الناس إلى الإسلام ، وإن الأمة الإسلامية تشهد عودة إلى الإسلام ، تعيد المجد للمسلمين .

وقد اطلع أخي الأستاذ إبراهيم عبد الكريم السنيدي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية على ما اشتمل عليه الكتاب . فحثني على نشره لتعم الفائدة .

وما أحرانا أن نتعرف على العلامات المضيئة في الطريق .

الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح
بجامعة الأزهر وقطر



اختيار الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليبلغ الإسلام :

اختار الله - سبحانه وتعالى - لرسالة الإسلام ، من تأهل ليكون خير من يتلقى الوحي ، ويبلغه للناس ، وتلك سنة الله مع رسالاته ورسله قال - تعالى - : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[1] .

فالله يختار رسله من الملائكة إلى الأنبياء ، ويختار رسله من البشر إلى الناس ، وذلك عن علم وخبرة وقدوة[2] .

ويذكر الطبري : أن الله يختار من الملائكة رسلا كجبريل وميكائيل اللذين كان يرسلهما إلى أنبيائه ، ومن شاء من عباده . ومن الناس كأنبيائه الذين أرسلهم إلى عباده من بني آدم[3] .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾[4]، أي: هؤلاء الذين ذكرنا : لمن الذين اصطفيناهم لذكرى الآخرة . الأخيار الذين اخترناهم لطاعتنا ، ورسالتنا إلى خلقنا[5] .

واصطفاء الله للرسل - عليهم السلام - يتم على مرحلتين : مرحلة تهيئة

---

(١) سورة الحج : آية رقم ٧٥ .

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ : ٥ ، ص : ٤٥١ ، طـ : كتاب الشعب بالقاهرة .
سيد قطب ، في ظلال القرآن ، جـ : ٤ ، ص : ٢٤٤٤ ، طـ : دار الشروق سنة : ١٤٠٢ هـ .

(٣) الطبري : جامع البيان في تفسير آي القرآن ، جـ : ١٧ ، ص : ١٤٢ ، طـ : الأميرية ببولاق .

(٤) سورة (ص) ، آية رقم ٤٧ .

(٥) الطبري : جامع البيان ، جـ : ٢٣ ، ص : ١١١ .

وتأهيل ، ومرحلة تكليف وإبلاغ[1] .

وكتب السيرة والسنة تروي كثيرا من الآثار تشير إلى تشريف الله – تعالى – باصطفاء محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وكونه أول الأنبياء خلقا[2] .

فقد روى ابن إسحاق عن قتادة مرسلا ، قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **كُنْتُ أَوَّلَ النَّاسِ فِي الْخَلْقِ وَآخِرَهُمْ فِي الْبَعْثِ** »[3] . وقد يكون المراد بالخلق هنا : التقدير دون الإيجاد ، فإنه قبل أن ولدته أمه لم يكن موجودا ، ولكن الغايات والكمالات سابقة في التقدير ، لاحقة في الوجود[4] .

وجاء عن العرباض بن سارية – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « **إِنِّي عِنْدَ اللهِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ** »[5] .

ويقول الطيبي : والمعنى : كتبت خاتم الأنبياء في الحال الذي آدم مطروح على الأرض ، حاصل في أثناء تخلقه ، لما يفرغ من تصويره وإجراء الروح[6] .

ويقول الحافظ أبو الفرج بن رجب – رحمه الله تعالى – : « والمقصود من هذا الحديث : أن نبوة النبي – صلى الله عليه وسلم – كانت مذكورة معروفة من قبل أن يخلقه الله – تعالى – ، ويخرجه إلى دار الدنيا حيا ، وأن ذلك كان

---

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ١١٤ ، ط : دار الكتاب اللبناني ، بيروت .

(٢) الصالحي الشامي ، سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد ، جـ : ١ ، ص : ٨٩ . تحقيق د . مصطفى عبد الواحد ، ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، بالقاهرة ، سنة : ١٣٩٢ هـ .

(٣) الديلمي ، الفردوس بمأثور الخطاب ، جـ : ٣ ، ص : ٢٨٢ ، ط الأولى ، سنة : ١٤٠٦هـ ، نشر : دار الكتب العلمية ، وابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ : ١ ، ص : ٣١٩ ، ط : البابي الحلبي ، بالقاهرة .

(٤) الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد ، جـ : ١ ، ص : ٩١ .

(٥) رواه الإمام أحمد ، في مسنده ، جـ : ٤ ، ص : ١٢٧ – ١٢٨ ، جـ : ٥ ص : ٣٧٩ ، ط : دار صادر بيروت .

(٦) الصالحي الشامي ، سبل الهدي والرشاد ، جـ : ١ ص : ٩٦ .

مكتوبا في أم الكتاب من قبل نفخ الروح في آدم – صلى الله عليهما وسلم – »[١] وفسر أم الكتاب : باللوح المحفوظ في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾[٢] ولا ريب أن علم الله قديم ، لم يزل عالما بما يحدثه من خلقه ، ثم إن الله – تعالى – كتب ذلك في كتاب عنده ، قبل أن يخلق السموات والأرض ، كما قال تعالى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[٣] .

ويروي الإمام أحمد عن ميسرة – رضي الله عنه – قال : قلت يا رسول الله : متى كنت نبيا ؟ قال : « وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ »[٤] .

ويقول الإمام أحمد في رواية منها : وبعضهم يرويه : متى كنت من الكتابة ؟ قال : « كُنتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ » . فتحمل هذه الرواية مع حديث العرباض السابق على وجوب نبوته – صلى الله عليه وسلم – وثبوتها وظهورها في الخارج ، فإن الكتابة إنما تستعمل فيما هو واجب ، إما تشريعا كقوله تعالى : ﴿ ..كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ.. ﴾[٥] أو قدرا ، كقوله تعالى :﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ .. ﴾[٦] .

---

(١) ابن رجب ، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف ، ص : ٧٩ ، ط : مكتبة الرياض الحديثة ، بالرياض .

وانظر : الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد ، جـ : ١ ، ص : ٩٧ .

(٢) سورة الرعد ، آية رقم ٣٩ .

(٣) سورة الحديد : آية رقم ٢٢ .

وانظر : ابن رجب ، لطائف المعارف ، ص : ٧٩ ، بتصرف .

(٤) رواه أحمد ، في المسند ، جـ : ٥ ، ص : ٥٩ .

ورواه الترمذي ، في صحيحه ، جـ : ٢ ، ص : ٤٢٥ . ط : شركة الحلبي بمصر ، ط : الثانية ، سنة ١٣٩٥هـ .

(٥) سورة البقرة ، آية : رقم ١٨٣ .

(٦) سورة المجادلة ، آية رقم ٢١ .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قالوا يا رسول الله : متى وجبت لك النبوة ؟ قال : « وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ »[1] .

وروى ابن سعد عن الشعبي قال : قال رجل : يا رسول الله : متى استنبئت ؟ قال : « وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ حِينَ أُخِذَ مِنِّي الْمِيثَاقُ »[2] .

وسئل أبو جعفر محمد بن علي : كيف صار محمد – صلى الله عليه وسلم – يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث ؟ قال : إن الله لما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم[3] كان محمد – صلى الله عليه وسلم – أول من قال : بلى . ولذلك صار يتقدم الأنبياء ، وهو آخر من بعث[4] .

ومنذ استودع الخليل إبراهيم قلب الصحراء ولده إسماعيل – عليهما السلام – فإن عناية الله لهما بتحمل التبعة والمسئولية ، بعيدا عن الدعة والرخاوة والنعومة للرجال الأكفاء ، الذين يحملون أمانة الرسالة الخاتمة على يد النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وتترجم فطرة إبراهيم – عليه السلام – هذه المعاني ، في سورة الدعاء ، والأماني ، يسأل بها ربه . قال الله – تعالى – : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ

(١) رواه الترمذي ، في صحيحه ، كتاب المناقب ، باب فضل النبي – صلى الله عليه وسلم – جـ : ٥ ، ص : ٥٨٥ .

ورواه الحاكم ، في المستدرك ، كتاب التاريخ ، باب ذكر مراكبه – صلى الله عليه وسلم – جـ : ٢ ، ص : ٦٠٩ . وقال : حديث صحيح ووافقه الذهبي .

ورواه أحمد ، في المسند ، جـ : ٥ ، ص : ٥٩ .

(٢) رواه الدارمي في سننه ، المقدمة ، : ٣ ، طـ : دار الدعوة في استانبول ، سنة : ١٩٨١م . ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ، جـ١ ، ص : ٩٥ .

(٣) قال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ سورة الأعراف ، آية رقم ١٧٢ .

(٤) الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد ، جـ : ١ ، ص : ١٠١ .

ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[1].

وما كاد يشتد ساعد إسماعيل – عليه السلام – بعد فترة وجيزة ، حتى يقف إلى جوار أبيه ، يؤكدان معاً ، هذا الأمل الجاد ، في خاتم الأنبياء ، وفي أمة الإسلام ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] .

فالعناية الإلهية قد هيأت سلسلة طيبة من الآباء الأخيار والأجداد للنبي – صلى الله عليه وسلم – ، ليأخذ منها عن طريق الوراثة[4] كثيرامن الخلق والطباع ، ذلك لأن الوراثة عامل هام في تكوين الشخصية فهي تعمل في أصل النمو ، وتدخل من داخل الكائن الحي ، وما جاء في الوراثة ، ما رواه البخاري بسنده عن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دخل عليها

---

(١) سورة إبراهيم ، آية رقم ٣٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآيات رقم ١٢٧ – ١٢٩ .

(٣) سورة التوبة ، آية رقم ١٢٨ .

(٤) حتى لا يكون هناك مجال للتقول على نسبه – صلى الله عليه وسلم – وأثر هذا النسب ، وذلك لما ألف الناس من التواصل بين الآباء والأبناء ، وأثر الوراثة في الذرية .

مسرورا ، تبرق أسارير وجهه فقال : « **أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ الْمُدْلِجِي لِزَيْدٍ وَأُسَامَةَ – ورأى أقدامهما – فقال : إنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأَقْدَام مِنْ بَعْضٍ** »[1] .

وحينما قذف هلال بن أمية زوجته في شريك بن سحماء – وهي حامل – قال – عليه السلام – : « **أَبْصِرُوهَا فَإِن جَاءَتْ بِهِ أَبْيَضَ ، سَبَطًا قَضِيءَ الْعَيْنَيْنِ . فَهُوَ لِهِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ ، وَإِن جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ ، جَعْدَ أَحْمَشَ السَّاقَيْنِ فَهُوَ لِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ ، قال : فَأُنبِئْتُ أَنَّهَا جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ جَعْدًا ، حَمَشَ السَّاقَيْنِ** »[2] وهذا دليل واضح ، يشير إلى توارث الصفات ، والوراثة تنقل الصفات الجسمية والعقلية .

ويرى علماء النفس : أن الذكاء ، والطبع يخضعان لقوانين الوراثة[3] وأن الدراسات الحديثة في الوراثة والاستراتيجية تضع معبارا لقياس السلوك المنتظر للزعماء والقادة ، الذين يتقلدون زمام الأمور في دول العالم الحديث[4] .

فمقدار ما يتحمله الزعيم من خصائص في الوراثة والأخلاق ، بمقدار ما يتكهن له الدارسون من سلوك وممارسات[5] .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري ، كتاب المناقب ، باب صفة النبي – صلى الله عليه وسلم – جـ : ٦ ، ص : ٥٦٥ ، ط : دار المعرفة للطباعة والنشر ، ببيروت .

ورواه مسلم ، في صحيحه ، كتاب الرضاع ، باب العمل بإلحاق القائف الولد جـ : ١٠ ، ص : ٤١ ، ط : الثالثة ، دار الفكر ، بيروت ، سنة : ١٣٨٩ هـ .

(٢) رواه البخاري ، في مواضع من حديثه مع فتح الباري ، منها : كتاب الطلاق ، باب قول الإمام : اللهم بين ، جـ : ٩ ، ص : ٤٦١ .

ورواه الترمذي في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب سورة النور ، جـ : ٥ ، ص : ٣٣١ – ٣٣٢ ، ورواه أحمد ، في مسنده ، جـ : ١ ، ص : ٢٣٨ – ٢٣٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٥ .

(٣) د . عبد العزيز القوصي ، أسس الصحة النفسية ، ص : ٣٧ ، ط : الخامسة القاهرة .

(٤) د . رؤوف شلبي : بيت الرسول وقيمه الحضارية ، ص : ٣٦٠ ، من كتاب السيرة والسنة النبوية ، صفر ، سنة : ١٤٠٦هـ : ط : الأزهر .

(٥) راجع المصدر السابق .

وأصبح من المعروف في معاهد الدراسات الاستراتيجية : أن علم الوراثة ، وعلم الأخلاق ، من الأصول التي ترتكز عليها الدراسات الاستراتيجية المتعلقة بالتنبؤ لممارسات الزعماء الذين يتولون جديدا مقاليد الأمور في بلد ما[١] .

ونبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وإن كان باصطفاء الله له رسولا خاتما ، فهو أعلى وأكرم من أن يقاس بمقاييس علماء الاستراتيجية الحديثة ، غير أنه قد يكون من المقبول علميا : أن ننشر على الناس خصائص نسبه ، الذي اختصه الله به ، ليكون ذلك نبراسا في تفهم القيم الحضارية ، التي أرساها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في مجالات كثيرة من مجالات الحياة ، لأنه أسوة وقدرة[٢] .

فيكون نسبه – عليه الصلاة والسلام – وما قرره من قواعد القيم الحضارية المنزلة : الأصل الذي ترتكز عليه الحياة الإسلامية في دنيا المسلمين قاطبة .

ويختص نسب الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعدة خصائص في مقدمتها :

١ – البقاء إلى جوار البيت الحرام ، والتمسك بملة إبراهيم – عليه السلام – .
٢ – الفروسية .
٣ – شرف النفس .
٤ – حفظ الأسرار .
٥ – العناية والاهتمام بمكارم الأخلاق .
٦ – الرحمة بالضعفاء[٣] .

وبيان ذلك :

---

(١) راجع المصدر السابق .
(٢) راجع المصدر السابق .
(٣) راجع المصدر السابق .

١ – البقاء إلى جوار البيت الحرام :

إن عدنان هو : الجد الذي يثبت إليه نسب الرسول – صلى الله عليه وسلم – علميا وتاريخيا[١] .

لقد ولد لعدنان ولدان :

عك بن عدنان .

ومعد بن عدنان .

أما عك : فقد نزح إلى اليمن ، وتزوج من الأشعريين[٢] .

وأما معد : فقد استقر بمكة ، مجاورا بيت الله الحرام . الذي رفع قواعده إبراهيم – عليه السلام – أصل هذه الدوحة الشريفة .

ثم ولد له : نزار ، وقضاعة ، وقنص .

أما نزار : فقد استقر بمكة .

وأما قضاعة : فقد انتقل إلى حمير في بلاد سبأ .

وأما قنص : فقد هلك .

ثم كان من نزار أولاده : ربيعة ، وأنمار ، وإياد ، ومضر ، لم يستقر واحد منهم إلى جوار البيت الحرام ، سوى : مضر ، ومن خصائص مضر أنه ما رآه أحد إلا قدره وأحبه ، فهو صاحب كنف موطأ[٣] .

فسلسلة النسب الزكي مستقرة حول البيت العتيق ، فهو جوار طاهر في كنف بيت عتيق ، معظم في آباء مسجدين مؤثلين .

ثم كان من مضر ولداه : غيلان ، وإلياس .

أما غيلان : فقد أفسد الدين .

---

(١) ابن قدامة ، التبيين في أنساب القرشيين ، ص : ٣٦ .

(٢) هم : من قبائل كهلان ، من القحطانية ، وهم : بنو الأشعر بن أدد بن زيد من يشجب من غريب بن زيد بن كهلان بن سبأ .

عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب ، جـ : ١ ، ص : ٣٠ .

(٣) د . رؤوف شلبي ، بيت الرسول وقيمه الحضارية ، ص : ٣٦١ – ٣٦٢ من كتاب : السيرة والسنة النبوية .

وأما إلياس : فقد صان ملة إبراهيم ، وحافظ على الشرائع التي ورثها البيت الإسماعيلي من جدهم إبراهيم ، وإسماعيل – عليهما السلام –[1] .

تقول مصادر السيرة النبوية : إن إلياس أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام ، وكان في العرب مثل : لقمان الحكيم في قومه[2] .

٢ – الفروسية :

ومن إلياس – كبير قومه – كان ثلاثة نفر : عامر ، ولقبه : مدركة ، وطابخة ، وقسعة .

كان عامر (مدركة) هو : الفارس المقدام الشجاع ، وهو الجد في السلسلة الشريفة للنبي – صلى الله عليه وسلم – واستحق هذا اللقب لأنه أدرك كل عز وفخر .

أما الآخران : فقد كانا كسولين[3] .

٣ – حفظ الأسرار :

ثم ولد له : خزيمة ، وهذيل .

وكان خزيمة : أشرف الناس نفسا ، فأنجب أربعة : كنانة ، وهي التي اصطفاها الله من ولد إسماعيل ، وكان أسد ، وأسدة ، والهون .

وكان كنانة هو جد النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فقد اختص بأنه يكن ، ويحفظ أسرار الخلق ، وهي صفة أمانة الأسرار للمجتمع[4] .

تقول المصادر : قيل له : كنانة ، لأنه لم يزل في كن قومه بستره عليهم ، وحفظه لأسراراهم ، وكان شيخا حسنا عظيم القدر ، تحج إليه العرب ، لعلمه وفضله وكان يأنف أن يأكل وحده .

---

(١) د . رؤوف شلبي ، بيت الرسول وقيمه الحضارية ، ص : ٣٦٢ ، من كتاب السيرة والسنة النبوية .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

ثم كان منه : النضر ، وملك ، وعبد مناة ، وملكان .

وسمي : النضر ، لنضارته ، وحسن طلعته ، وبهائه[1] .

٤ - البحث والعناية والاهتمام بمكارم الأخلاق :

ثم كان من النضر : مالك ، ويخلد .

يقولون : سمي مالكا ، لأنه ملك أمر العرب .

ومنه : كان فهر ، وفهر هذا هو : (قريش) ، وسمي بذلك لأنه كان يقرش ، يعني : يفتش عن خلة المحتاج ، ليسدها ، ويقيل عثرته وكان أبناؤه من بعده يقرشون أهل الموسم ، بمعنى : أنهم يقضون لهم حوائجهم[2] .

ومن فهر كان أبناؤه : غالب ، ومحارب ، والحارث ، وأسد ، وكان غالب هو : جد النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان يغلب على الحق .

ومن غالب كان : لؤي ، وتميم .

وكان لؤي هو : جد النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ومنه كان كعب ، ومنه كان مرة ، ثم كان كلاب ، وكان كعب يجمع قومه يوم العروبة وهو يوم الجمعة ، أو يوم الرحمة ، ويقال : إنه أول من سمي يوم الجمعة بذلك لاجتماع قريش فيه إليه[3] .

وكلاب اكتسبها من كثرة استخدامه لكلاب الصيد ، واسمه : (حكيم) وكلاب : مجمع جدي النبي - صلى الله عليه وسلم - لأبيه وأمه ، لأنه أنجب قُصَيًّا جد النبي - صلى الله عليه وسلم - لأبيه ، وزهرة جد النبي - صلى الله

(١) د . رؤوف شلبي ، بيت الرسول وقيمه الحضارية ، ص : ٣٦٢ ، من كتاب السنة والسيرة النبوية .

(٢) أبو الفضل العراقي ، القرب في محبة العرب ، ص : ١٤٨ ، تحقيق إبراهيم حلمي القادري .

(٣) د . رؤوف شلبي ، بيت الرسول وقيمه الحضارية ، ص : ٣٦٣ ، من كتاب السنة والسيرة النبوية .

عليه وسلم – لأمـه[1] .

ومن خصائص قصى :

الحجابة : وهي حراسة الكعبة .

الرفادة : إطعام أهل المواسم في الحج .

اللواء : حق إعلان الحرب وعقد الجيوش .

السقاية : سقاية الحجيج الماء بلا مقابل .

الندوة : الشورى .

ومن قصى كان أولاده : عبد مناف ، وهو جد النبي – صلى الله عليه وسلم – وعبد الدار ، وعبد العزى ، وعبد بن قصي .

أما عبد مناف : فقد امتاز في ظل والده بالوقار والاحترام لذاته وكان عبد الدار : هزيل المقام ، فرأى قصي أن يعطيه شيئا من الشرف ووزع على أولاده ، فأعطى عبد مناف : السقاية ، والرفادة ، وهي صفات الكرم والجود والسخاء المتكرر الدائم ، وأعطى عبد الدار : اللواء ، ليرفع من ضعفه[2] .

٥ – الرحمة بالضعفاء :

ثم كان من عبد مناف رجال هم : هاشم والمطلب ، وعبد شمس ، ونوفل .

وكان هاشم كريما يحفظ له التاريخ : أن قريشا أصابتها مخمصة وهو فى بلاد الشام ، فاشترى دقيقا وكعكا ، وقدم مكة ، فهشم الخبز والكعك ، ونحر الجزر ، وجعله ثريدا ، وأطعم الناس ، حتى أشبعهم فسمى لذلك : هاشما .

يقول الكاتبون : كان هاشم يحمل ابن السبيل ، ويؤمن الخائف ثم وَرَّثَ هاشم

(١) د . رؤوف شلبي ، بيت الرسول وقيمه الحضارية ، ص : ٣٦٣ ، من كتاب السيرة والسنة النبوية .

(٢) المرجع السابق ص٣٦٤ .

خصائصه فى العدل الاجتماعى إلى المطلب أخيه ، ثم ورثها عبد المطلب بن هاشم من عمه المطلب .

وعبد المطلب له خصائص أضفت عليه ألقابا ، فهو : مطعم طير السماء وهو : شيبة الحمد ، وهو رجل مجاب الدعوة ، كانت قريش تستقى به المطر ، وسمى لذلك : بالفياض[1] .

ومن عبد المطلب كان عبد الله ، الذى جعل الله منه المصطفى الخاتم نبينا محمدا – صلى الله عليه وسلم – الذي حمل من أرومته هذه الخصائص العليا :

- الجوار إلى بيت الله العتيق ، والبقاء على ملة إبراهيم الحنيف .
- الفروسية والإقدام والشجاعة .
- شرف النفس ، وعلو الهمة .
- حفظ الأسرار ، والأمانة .
- مكارم الأخلاق ، وفضائلها .
- رعاية الضعفاء ، وحماية المحاويج .

وبهذه الخصائص الوراثية التي تعد قاعدة في الدراسات الاستراتيجية يكون نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم – على السنام ، من ذروة المجد والشرف المؤثل ، لجميع زعماء العالم قديما وحديثا ، وإذا فما هرطق به قليلو الثقافة ، وضعفاء التفكير ، من المستشرقين ، وكتاب الغرب الحاقدين على الإسلام والمسلمين ، من أمثال : « لاسانس » ، و« مستر موير » ، إنما هو محض افتراء مزيف ، لايعتمد على توثيق من مصدر أمين ، ولامصدر من عقل محترم لنفسه ، يعرف أصول النتائج من مقدماتها ، ولا سيما ما قاله الكاتب الفرنسي : مسيو جاستون فييت .فما هو إلا استخفاف بالعقلية العلمية ، وزاد لمحبي ومروجي الإشاعات

---

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ : ٢ ، ص١٦ – ١٧ .
د . رؤوف شلبي ، بيت الرسول وقيمه الحضارية ، ص : ٣٦٤ ، من كتاب السيرة والسنة النبوية .

والأكاذيب ، من كتاب يحبون الجهل الماجن ، على العلم الواثق .

ونحن العرب المسلمين بما لنا من أمجاد في الفتح الإسلامي والحضارة العالمية ، وإسعاد الإنسانية ، نثق كل الثقة في أصول البيت النبوي الكريم الشريف ، وفي القيم الحضارية المنزلة ، التي تدثرت به والتي انبثقت عنها[1] .

ولذلك كان من عناية الله بمحمد –صلى الله عليه وسلم – أن وضعه في نهاية سلسلة فاضلة من الناس أتته من قبل والديه ، فأبوه عبدالله وجده عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي . وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب . فهما يلتقيان معا في الجد الخامس كلاب بن مرة[2] .

وعبد المطلب هو جد النبي – صلى الله عليه وسلم – وابن هاشم من زوجته سلمى بنت عمرو . وقد شرف في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، إذ أحبه قومه ، وعظم خطره فيهم ، وهو شيخ مكة يوم قدوم أبرهة ، وهو الذي حفر بئر زمزم ، بعد أن هدى إليها ، وهو الذي قدم أحد أبنائه العشرة ، للذبح عند الكعبة ، وفاء لنذره بأن يقوم بذبح أحد أولاده إن رزق عشرة ذكور ، فلما رزقهم أقرع على الذبيح فجاء على عبدالله ، وكاد يذبحه ، لولا نصح القرشيين له ، وتضحياتهم لكنه استبدل بالذبح الفداء ، بناء على نصيحة عرافة خيبر[3] .

والذبيح الذي أفدى هو : عبد الله – أصغر أبناء عبد المطلب ووالد النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد اشتهر بالعفة والطهر وما روي في هذا الباب : أنه مر ذات يوم بعد فدائه على فاطمة بنت مر الخثعمية فقالت له : هل لك أن تغشاني وتأخذ مائة من الإبل ؟ فرد عليها بقوله :

---

(١) د . رؤوف شلبي ، بيت الرسول وقيمه الحضارية ، ص : ٣٦٤ ، من كتاب : السيرة والسنة النبوية .

(٢) محمد عفيف الزغبي ، مختصر السيرة النبوية ، ص : ١٣ – ٢٤ ، ط : دار المطبوعات ، بجدة .

(٣) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ١١٧ .

أمــا الحرام فالممــات دونــه والحل لاحـــل فأستبينـــه
فكيـف بالأمـر الـذي تبغينـه يحمي الكريم عـرضه ودينـه[1]

قال ذلك ولم يلتفت إليها ، ثم تزوج من آمنة ، نزولا على مشورة والده – ثم ترك آمنة بعد العرس بقليل للتجارة ، لكنه مات وهو عائد من هذه الرحلة .

ومما يجدر أن يذكر أن نسب النبي –صلى الله عليه وسلم – من جهة أمه عالٍ هو الآخر ، إذ يصف ابن هشام آمنة بقوله : « إن آباءها من فضلاء قريش ، وسادة بنى زهرة »[2] .

فالنبي محمد –صلى الله عليه وسلم – نخبة بني هاشم وسلالة قريش وأشرف العرب ، وأعزهم نفرا من قبل أبيه وأمه ، ومن أهل مكة أكرم بلاد الله – تعالى – على الله وعباده .

وأعداؤه – صلى الله عليه وسلم – كانوا يشهدون له بذلك ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك : أبو سفيان بن حرب ، بين يدى ملك الروم ، « قال ملك الروم لترجمانه : سله . كيف حسبه فيكم ؟ يقول أبو سفيان ، قلت : هو فينا ذو حسب[3] » . فأشرف القوم قومه ، وأشرف القبائل قبيلته ، وأشرف الأفخاذ فخذه – صلى الله عليه وسلم – قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[4] .وما قاله الله –تعالى – حجة لأهل الحق ، على أن الرسالة فضل من الله –تعالى – يختص به من يشاء من خلقه ، لاينالها أحد

---

(١) الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد ، جـ : ١ ، ص : ٣٩٢ ، عباس محمود العقاد ، مطلع النور ، أو طوالع البعثة المحمدية ص : ١٣٨ ، طبع ونشر : المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ : ١ ، ص : ١٢١ .

(٣) رواه البخاري ، في مواضع من صحيحه مع فتح الباري ، في كتب بدء الوحي ، والجهاد ، والأحكام ، والإيمان ، والشهادات ، وغيرها ، جـ : ١ ، ص : ٣١ – ٤٥ .

ورواه مسلم ، في صحيحه ، في كتاب الجهاد ، باب كتاب النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى هرقل ، جـ : ٣ ، ١٣٩٣ – ١٣٩٧ ، ١٧٧٣ .

(٤) سورة الأنعام ، جزء من آية رقم ١٢٤ .

بكسب ، ولايتوسل إليها بسبب ولانسب وعلى أنه -تعالى - لايختص بهذه الرحمة العظيمة ، والمنقبة الكريمة ، إلا من كان أهلا لها ، مما أهله هو من سلاسة الفطرة ، وعلو الهمة ، وزكاء النفس ، وطهارة القلب ، وحب الخير والحق ، وكان أذكياء العرب في الجاهلية على شركهم بالله -تعالى - يعلمون : أن الصادقين محبي الحق ، وفاعلي الخير من الفضلاء ، أهل لكرامته -تعالى - ، وعنايته[1] » .

لقد كان بيت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، جد النبي -صلى الله عليه وسلم -لأبيه ، وبيت وهب بن عبد مناف : جد النبي - عليه السلام -لأمه من أعلى البيوت في قريش ، إذ كان عبدالمطلب بن هاشم سيد بني هاشم ، وكان وهب بن عبد مناف سيد بني زهرة وكان كلا البيتين موسوما بالشرف والكرامة والطهر والعفاف ، ورعاية الدين والفضيلة ، فكان زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب زواجا موفقا ميمونا ، اتحد فيه عنصر طيب بعنصر طيب ، وانضم به أصل كريم إلى أصل كريم ، وأصهر بيت عريق في شرف الآباء ، وطهر الأمهات إلى بيت يكافئه بالشرف والطهارة ، فكان من الطبيعي أن تكون ثمرة هذه المصاهرة ثمرة طيبة مباركة ، وأن يكون نسل هذا الزواج نسلا طاهرا كريما[2] .

وما أجمل قول العقاد : كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ، ووسامة ، وجمال . عرفوا بالنبل والكرم والعفة والهمة والوفاء ، ولم تكن أخلاقهم هذه من مناقب الأماديح التي يتبرع بها الشعراء ، أو من الكلمات التي ترسل إرسالا على الألسنة ، ولايراد بها معناها .

وابن هاشم عبد المطلب : سيد قريش غير مدافع ، وكان عبد المطلب متدينا ،

(١) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، جـ : ٢ ، ص : ٣٥ ، ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة : ١٩٧٣م .

(٢) أمين دويدار ، صور من حياة الرسول ، ص : ٣٧ ، ط : الأولى القاهرة ، عبد الله بن حمد الشبانة ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء .. ص : ١٣٧ - ١٤٠ ، بتصرف واختصار ، ط : الأولى دار الهدى للنشر والتوزيع ، بالرياض ، سنة : ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

صادق اليقين ، مؤمنا بمبادىء دينه في الجاهلية ، لأن ثقة الإيمان طبيعية في وجدانه ، وهو أول من حلى الكعبة بالذهب من ماله وكان في الحق نمطا فريدا بين أصحاب الطبائع التي فطرت على الاعتقاد ومناقب النبل والإيثار .

إن أسرة النبي – صلى الله عليه وسلم – أسرة عزيزة الآباء والأجداد ، فخرها بالنسب أعظم من كل فخر ، وسيادتها بالخلائق الموروثة أثبت من كل سيادة ، ثم ينشأ لها من بنيها نبي ينعى على الآباء والأجداد ، ماكانوا عليه من ضلالة .

لقد نشأ محمد – صلى الله عليه وسلم – في الأسرة ، التي تعطيه خير ما تعطي الأسرة بنيها ، ولكنه جاء بالنبوة التي لايعطيها غير الله ، فكانت الأسرة ، تمهيدا له فيما ورث منها[1] .

ويروى : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِن وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى قُرَيْشاًمِنْ كِنَانَةَ ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ** »[2] .

ويقول العباس : بلغه – صلى الله عليه وسلم – بعض مايقول الناس ، فصعد المنبر ، فقال :« **مَنْ أَنَا** » ؟ قالوا : أنت رسول الله قال :« **أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتاً ، وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا** »[3] .

والذي عليه أهل السنة والجماعة : أن قريشا أفضل العرب وأن بني هاشم : أفضل قريش ، وأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أفضل بني هاشم فهو

(١) العقاد ، الإسلاميات ، المجلد السابع ، ص : ٣٢٣ – ٣٥٤ ، ط : دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة : ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م .

(٢) رواه مسلم ، في صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم – ، جـ : ٤ ، ص : ١٧٨٢ ، ٢٢٧٦ .

(٣) رواه الترمذي ، في صحيحه ، كتاب المناقب ، باب فضل النبي – صلى الله عليه وسلم – ، جـ : ٥ ، ص : ٥٨٤ ، رقم الحديث : ٣٦٠٧ – ٣٦٠٨ وقال : حديث حسن .

أفضل الخلق نفسا ، وأفضلهم نسبا[1] .

وعن عكرمة عن ابن عباس – رضي الله عنهما –في قوله تعالى﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[2] قال :« من صلب نبي إلى صلب نبي حتى صرت نبيا »[3] .

وجاء في حاشية الجمل على الجلالين : وهو أن أصول محمد – صلى الله عليه وسلم – لم يدخلهم الشرك ، مادام النور المحمدي في الذكر والأنثى ، فإذا انتقل منه إلى من بعده ، أمكن أن يعبد غير الله[4] .

وجاء فيه – أيضا – : أي : يراك متقلبا في أصلاب وأرحام المؤمنين ، من لدن آدم وحواء إلى عبد الله وآمنة ، فجميع أصوله رجالا ونساء مؤمنون[5] .

وهناك إجماع على : أن نسب الرسول – صلى الله عليه وسلم – ينتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم أبي العرب المستعربة ، نسب شريف وآباء طاهرون ، وأمهات طاهرات ، لم يزل – عليه الصلاة والسلام – ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء ، حتى اختاره الله هاديا مهديا ، من أوسط العرب نسبا ، فهو من صميم قريش ، التي لها القدم الأولى في الشرف ، وعلو المكانة بين العرب ، ولاتجد في سلسلة آبائه ، إلا كبراء كلهم سادة وقادة ، وكذلك أمهات آبائه ، من أرفع قبائلهن شأنا ، ولاشك أن شرف النسب ، وطهارة المولد من شروط النبوة ، وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته ، كان شرعيا حسب الأصول العربية[6] .

---

(١) ابن تيمية ، اقتضاء الصرط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، المجلد الأول ، ص : ٣٧٠ ، تحقيق وتعليق : د . ناصر بن عبد الكريم العقل ط : الأولى ، سنة : ١٤٠٤هـ .

(٢) سورة الشعراء آية : ٢١٩ .

(٣) رواه البزار ، في مسنده (كشف الأستار عن زوائد البزار – للهيثمي) جـ : ٣ ، ص : ٦٢ ، ط : الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

(٤) الجمل ، الفتوحات الإلهية ، جـ : ٣ ، ص : ٢٩٦ ، ط : عيسى البابي الحلبي .

(٥) المرجع السابق .

(٦) محمد الخضري ، نور اليقين ، ص : ١٢ ، ط : دار القلم ، بيروت تحقيق : عبد العزيز سيراوان .

وما يحسن أن نشير إليه : أن هناك مزيتين ، في آباء النبي –صلى الله عليه وسلم – ، وأجداده ، علينا أن نعرض لهما :

المزية الأولى :

أن الآباء المباشرين من والد وجد ، وهكذا إلى النهاية لم ينغمسوا في الشرك ، والوثنية على غير عادة معاصريهم ، وتلك إرادة الله في آبائه – عليه السلام – ، إذ بقي فيهم هذا الفهم الديني، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1] ويذكر العلماء : أن الكلمة الواردة هي قوله تعالى : (لا إله إلا الله) وبذلك فسرها مجاهد وقتادة ، وغيرهما وقد بقيت هذه الكلمة ، فلا يزال في ذريته من يقولها[2] ، ويوحد الله ، ويدعو إلى توحده[3] .

وقد ذكر السيوطي : « أن أجداد النبي – صلى الله عليه وسلم – من آدم إلى إبراهيم ، كانوا مؤمنين بيقين »[4] .فلما أتى إبراهيم بولده إسماعيل ، قال قبل أن يتركه، داعيا له: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾[5] ويقول الطبري في روايته عن مجاهد : « استجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده ، فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد موته »[6] .

المزية الثانية

وأما عن المزية الثانية ، فإن النبي – صلى الله عليه وسلم – ينتسب إلى بطن بني هاشم ، وبني هاشم بطن يبطن مكة ويرتبط مع سائر بطون قريش في

(١) سورة الزخرف ، آية رقم ٢٨ .
(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ : ٧ ، ص : ٢١٢ .
(٣) الزمخشري ، الكشاف ، جـ : ٣ ، ص : ٤٧٤ ، طـ : دار المعرفة بيروت .
(٤) السيوطي : الحاوي للفتاوي ، جـ : ٢ ، ص : ١٢٦ ، طـ : دار الفكر بيروت .
(٥) سورة إبراهيم ، آية رقم ٣٥ .
(٦) الطبري ، جامع البيان في تفسير آي القرآن : جـ : ١٣ ، ص : ٢٢٨ .

قرابة[1] وتلك سيرة لداعية يظهر بين الناس ، إذ يجد نفسه مرتبطا بقربى مع سائر البطون .

وأخرج البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما - :« أنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم - لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إلاَّ وَلَهُ قَرَابَةٌ فِيهِ»[2].

وهكذا كانت تهيئة الله - سبحانه وتعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - قبل ميلاده ، فجعل آباءه من خير الخلق خلقا ، ودينا ومسلكا ، وجعل آباءه من بطن يتصل بكل بطون قريش اتصالا قائما على النسب والقربى .

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - مثال الصدق والأمانة في سلوكه ، حتى اشتهر بهاتين الصفتين ، وسماه الناس بالصادق الأمين وتجلت عناية الله - سبحانه وتعالى - به في هذه المرحلة ، فلم يسجد لصنم قط ، وكان يلتمس الهدى ، متبعا مابقى من دين إبراهيم - عليه السلام - .

فالعناية الإلهية ، تضمنت تهيئة النشأة القوية للنبي - صلى الله عليه وسلم - إذ أحاطته بإيواء قوي رحيم ، وشكلت شخصيته بالواقعية والأصالة .

اختيار الأمة الأولى للإسلام

. يذكر العلماء أن كمال كل نوع إنما هو محصول صفاته الخاصة به وصدور آثاره المقصودة به ، وبحسب زيادة ذلك ونقصانه ، يفضل بعض أفراده بعضا ، إلى أن يعد أحدهما سماء والآخر أرضا .

والإنسان مشارك لسائر الأجسام في الحصول في الحيز والفضاء وللنباتات في الغذاء والنشوء والنماء ، وللحيوانات في حيويته بأنفاسه وحركته بإرادته

---

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة لإسلامية ، ص : ١٢١ .

(٢) رواه البخاري ، في صحيحه ، كتاب المناقب ، جـ : ٤ ، ص : ٢١٧ ، ورواه البزار ، في كشف الأستار عن زوائد البزار ، كتاب علامات النبوة باب قدم نبوته - صلى الله عليه وسلم - ، جـ : ٣ ، ص : ١١٢ . ورواه الطبراني في الأوسط .

وإحساسه ، وإنما يتميز بما أعطى من القوة النطقية ومايتبعها من العقل ، والعلوم الضرورية ، والأعمال الصالحة المرضية وأهليته للنظر والاستدلال ، وترقيه بذلك في مدارج الكمال ، وعلمه بما أمكن واستحال ، فإذا كاله إنما هو بتعقل المعقولات ، واكتساب المجهولات ، وبالأخلاق الحسنة التابعة للأعمال الصالحات ، فللإنسان فضل على سائر الحيوانات كلها في نفسه وجسمه[١] .

ولقد كان لظهور الإسلام في الأمة العربية دليل على مميزات وضعها الله – سبحانه وتعالى – في العرب ، واختارهم من أجلها ليكونوا أمة يبعث النبي – صلى الله عليه وسلم – فيها وبلسانها ، وينزل القرآن الكريم بلغتها ، مراعيا جانب التفوق العربي ، في إعجازه ودقته ولابد أن تكون هذه الأمة على مستوى ارتباط العالم كله بها ، واتجاهه إليها عند كل صلاة وحج ، وعلى قدرة تحمل مسئولية إبلاغ الدعوة إلى كل الآفاق[٢] .

فأي أمة لها كل هذا في تاريخ الإنسانية ؟

إنها أولا : الأمة التي يتحقق لنا من استقراء التاريخ : أنها نطفة البشر الأولى[٣] ، وأنها بدء حياة الإنسان ، فإن سلامة الفطرة في البشرية لا تكون على أتم ظهورها بالبداهة ، إلا في هذه الأمة التي تنطوي فيها الأمم ، والتي تنفجر من صخرتها ينابيع الخصائص الأولى نقية قبل أن تتدنس بصراعات الحياة وتسقط في أخاديد القهر ، وتدور في منعرجاته ومآزقه ، وهذه الأمة التي يقرر التاريخ الصحيح ابتداء البشر بها هي : الأمة العربية لاجدال . ضاربين صفحا من القول الشائع : بقدم التاريخ المصري ، أو البابلي ، فكلاهما ليس إلا أثرا متأخرا من آثار

(١) الألوسي البغدادي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، جـ : ١ ، ص : ١٨ ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٩٩ .

(٣) أي : أنهم كانوا أكثر الناس حفاظا على الأنساب ، حتى لا تختلط .أحمد موسى سالم ، لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب ؟ المقدمة ط : دار الجيل ، بيروت .

المهجرات العربية القديمة ، التي فاض بها قلب الجزيرة على أطراف الوطن العربي[1] .

وهي ثانيا : الأمة التي يقوم الدليل على أن الله - عز وجل - خاطبها بالفعل ، وجعل لسان الحق لسانها ، ودعوة الخير في الناس دعوتها ، وكتاب العدل في البشر كتابها ، ولقد قام الدليل الناصع الخالد على أنها هي : الأمة العربية ، أمة القرآن ، وأمة الإسلام ، وأمة البيان[2] .

وهي ثالثا : الأمة التي يثبت بالدليل :أن لها من عناصرالبيئة التي تحيا فيها مايحفظ عليها كمال الفطرة الإنسانية التي نشأت عليها في قوام البدن ، وتقويم النفس ، ذلك أن النفس والبدن في اتحادهما على كمال الفطرة ، يؤلفان اتجاه العقل السليم[3] .

وقد أشار القرآن الكريم إلى خصائص للعرب ، أهلتهم لحمل أكبر رسالة وأبقاها ، قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[4] .

جاء في تفسير الفخر الرازي : ووصفه لذريته بذلك ، لايليق إلا بأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فعطف عليه بقوله تعالى :﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ.. ﴾[5] ، وهذا الدعاء يفيد كمال حال ذريته من وجهين :

(١) أحمد موسى سالم ، لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب ؟ ص : ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص١٤٨ .

(٣) المرجع السابق ، ونفس الصفحة .

(٤) سورة البقرة الآيتان ١٢٨ - ١٢٩ .

(٥) الرازي ، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، جـ : ٢ ، ص : ٧١ - ٧٢ . ط : دار الفكر ، بيروت .

أحدهما :أن يكون فيهم رسول ، يكمل لهم الدين والشرع ، ويدعوهم إلى مايثبتون به على الإسلام .

وثانيهما :أن يكون ذلك المبعوث منهم ، لا من غيرهم[1] .

وقال ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – : « لَيْسَ فِي الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ إلاَّ قَدْ وَلَدَتْ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – مُضَرِيُّها وَرَبِيعِيُّهَا وَيَمَانِيُّهَا »[2] .

والله – سبحانه وتعالى – تخير العرب من خلقه ، وتخير الرسول –صلى الله عليه وسلم – منهم[3] .

قال ابن تيمية –رحمه الله – :« والذي عليه أهل السنة والجماعة : اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم ، عبرانيهم وسريانيهم ، روميهم وفرسيهم ، وغيرهم .

وأن قريشا أفضل العرب ، وأن بني هاشم : أفضل قريش ، وأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أفضل بني هاشم ، فهو : أفضل الخلق نفسا ، وأفضلهم نسبا .

وليس فضل العرب ، ثم قريش ، ثم بني هاشم ، لمجرد كون النبي –صلى الله عليه وسلم – منهم ، وإن كان هذا من الفضل ، بل هم في أنفسهم أفضل ، وبذلك يثبت لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه أفضل نفسا ونسبا[4] .

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم – : « **خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ ، فَاخْتَارَ مِنَ الْخَلْقِ بَنِي آدَمَ ، وَاخْتَارَمِنْ بَنِي آدَمَ الْعَرَبَ ، واخْتَارَ مِنَ الْعَرَبَ مُضَرَ ، وَاخْتَارَ مِنْ مُضَرَ قُرَيْشًا وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ**

---

(١) الرازي : التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) جـ٢، ص :٧١،٧٢ ط : دار الفكر – بيروت .
(٢) ابن الجوزي ، الوفاء بأحوال المصطفى ، جـ : ١ ، ص : ٧٩ ، ط : بيروت .
(٣) الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد ، جـ : ١ ، ص : ٢٦٩ .
(٤) ابن تيمية ، اقتضاء الصراط المستقيم ، جـ : ١ ، ص : ٣٧٠ – ٣٧١ .

بَنِي هَاشِمٍ ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ، فَأَنَا ، خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ » .

وعن واثلة بن الأسقع – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم – :« **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيم إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى كِنَانَةَمِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشاً ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ »** .

ويذكر ابن خلدون فضل العرب ، فيقول :« وهم أسرع الناس قبولا للحق والهدى ، لسلامة طباعهم عن اعوجاج الكلمات وبراءتها من ذميم الأخلاق ، إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة ، المتهيء لقبول الخير ، ببقائه على الفطرة الأُولى ، وبعده عما ينطبع في النفوس ، من قبيح العوائد ، وسوء الملكات »[1] .

وأهم ما حفظ ديار العرب من اكتساح غيرها لها من الأمم في غابر الدهر : « كون العرب أهل شدة وبأس ، وأباة ضيم ، لا ينامون على الثأر ويصبرون على شظف العيش ، ويتبلغون بميسوره ، وليست الرفاهية من شأن أكثر المعمور من أرضهم . ولذلك خاب الفرس والرومان والفراعنة والحبشة يوم حاولوا أن يستولوا على اليمن والحجاز ، وما إليهما ، مقدرين أن جزيرة العرب ، لا تساوى اكتساحها ، وأن من الصعب إجراء الأحكام على أهلها ، لبعد المسافات في فلوات ، لا أول لها ولاآخر[2] .

لقد أفادت البحوث : أن لبيئة العرب – عند ظهور الإسلام – مقومات لم تكن متوفرة في غيرها ، من بيئات العالم القديم ، لقد كانت مبرأة من القهر السياسي ، والترف الحضاري[3] .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : ١٣٢ ، ط : كتاب التحرير ، سنة : ١٣٨٦هـ بالقاهرة .

(٢) محمد كرد علي ، الإسلام والحضارة العربية ، جـ : ١ ، ص : ١٢٠ ، ط : الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة : ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م .

(٣) د . عبد العزيز كامل ، الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية ، جـ : ١ ، ص : ٦٣٣ ، من كتاب : البحوث والدراسات المقدمة لمؤتمر السيرة ، ط : قطر سنة : ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

وأهم عوامل المدنية في جزيرة العرب ، كون أهلها عرفوا في كل العصور معاناة التجارة ، ينقلون مع حاصلاتهم حاصلات الشرق إلى الغرب وحاصلات الغرب إلى الشرق ، واشتهروا بذلك . وكانت معرفة العرب بالأقطار المجاورة لاغبار عليها ، وكثيرا ما كانوا يفتشون الأملاك والضياع وينزلون الولايات المجاورة ، يساكنون أهلها ، كأن تلك البلاد أجزاء متممة لديارهم ، على اختلاف بينهم ، وبين ساكنيها في الطبائع والألسن(١) .

وإن البحث يقف بنا على صفات إنسانية عديدة ، أهلت العرب لتحمل مسئولية الدعوة الإسلامية ، ومن تلك الصفات :

أولا : أن الأمة العربية جمعت بين صفات البدو والحضر ، ومن هنا : كانت عصبيتهم الحادة ، التي جعلت كل فرد يتصور نفسه ملكا لايخضع لغير قبيلته ، و لم تقم لهم بذلك دولة واحدة ، وكان الرئيس فيهم كواحد منهم ، بل كان يتقرب إليهم بالحيل وتحسين المعاملة ، كسبا لودهم ، وفوزا برضاهم عنه(٢) .

وهذه العصبية فاقت حدها ، فانقلبت إلى ضد المطلوب منها لكن ما فيهم من سلامة الطبع وبعدهم قليلا من البداوة ، جعلهم يقبلون الخضوع للدعوة الدينية على أساس أن الوازع في هذا الخضوع ، لم ينشأ بسبب قهر بشري ، أو استذلال سلطان ، وإنما سببه من داخل أنفسهم كما أنه ليس خضوعا لفرد أو لقبيلة ، ولكنه خضوع لدين الله ، الذي يبعد المرء كلية عن التحاسد والتنافس والبغضاء(٣) .

وقد لاحظ ابن خلدون طبيعة العرب في الإباء والشمم فذكر « أنهم لايجتمعون إلا بصيغة دينية ، فإذا كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم واجتماعهم ، وذلك بما يشملهم من الدين المهذب للغلظة والأنفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس فإذا كان فيهم النبي الذي يبعثهم على

---

(١) محمد كرد على ، الإسلام والحضارة العربية ، جـ : ١ ، ص : ١٢٠ .
(٢) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ١٠٦ .
(٣) المرجع السابق .

القيام بأمر الله ، ويذهب عنهم مذموم الأخلاق ، ويأخذهم بمحمودها ، ويؤلف كلمتهم ، لإظهار الحق ثم اجتماعهم حصل لهم التغلب والملك[1] .

وهكذا ظهرت الدعوة الإسلامية في أمة جمعت بين البدو والحضر هي أمة العرب ، فحملتها بكفاءة وبلغتها إلى الناس أجمعين .

ثانيا : عرف العرب بدوا وحضرا بالشجاعة والجرأة ، والكبرياء العنيد ، كبرياء الرجل الحر ، حتى صار العرب أشجع الناس[2] ، وأما كون العرب أشجع من غيرهم ، فلأن الشجاعة من الصفات الغريزية والسجايا الطبيعية ، وقوة للنفس معنوية ، لاتدرك إلا بآثارها وغاياتها ولاتعلم إلا بمقتضياتها ، وهي : الإقدام في مواضع الإحجام ، وعدم المبالاة بالحياة ،وبالممات ، وكلما كانت هذه الآثار أعظم ، كان مبدؤها أقوى وأتم ، والعرب لم تزل رماحهم متشابكة ، وأعمارهم في الحروب متهالكة ، وسيوفهم متقارعة ، وأبطالهم في ميادين الهوجاء متنازعة ، قد رغبوا عن الحياة ، وطيب اللذات[3] .

ويكفي أن نعرف : أن العربي لم يسمح بمرور قوافل أجنبية للتجارة في أرضه ، إلا تحت إمرته ، وبعد موافقته ، ولقد كان لأيام العرب التي نشبت قبيل ظهور الدعوة ، واستمرت طويلا ، في أماكن متعددة أثر في تكوين العرب على الشجاعة والتحمل ، وقبول المخاطر .

وأن الجيل الذي عاصر ظهور الدعوة ، هو : الجمل الذي ولد ونشأ بين حديث الدم ، وصوت الرياح ، ولذلك تعد هذه الأيام مدرسة ناجحة في تخريج

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : ١٣٢ .

(٢) د . يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص : ٧٣ ، ط : الأولى ، دار المعارف ، بمصر .

د . عبد الحليم محمود ، عالمية الدعوة الإسلامية ، جـ : ٢ ، ص : ٥٠٦ ط : الثانية ، سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م الناشر : دار عكاظ للطباعة والنشر .

(٣) الآلوسي البغدادي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ص : ١٠٣ - ١٠٤ .

حملة الدعوة الأقوياء[1] .

ثالثا : وما تمتع به العرب من صفات أهلتهم لأن يكونوا الأمة الأولى للدعوة الإسلامية : ما تمتعوا به من ملامح العلم في القول والعمل ، فلقد كان العرب أقرب للعلم من غيرهم ، لأن العلم إمساك النفس عن هيجان الغضب ، كما أن التحلم : إمساكها عن قضاء الوطر ، والحلم من آثار العقل ، وغير منفك عنه[2] .

وما الكناية في كلام العرب ، ولغتهم ، إلا حساسية مرهفة ، وصيانة للسان من القول البذيء ، يستعان بها في الأسلوب ، عوضا عن التصريح بالقبح ، وما يستنكره[3] وقد كان عندهم كلمة يقولونها في مواطن الثورة والغضب ، فيسكن الغضب ، وتهدأ الثورة ،هذه الكلمة هي : (إذا ملكت فأسجح)[4] ومن حلمهم العملي : ماروي أن قيس بن عاصم المنقري كان يحدث أصحابه يوما وهو جالس حبوا ، فجاءوا بابن له قتيل ، وابن عم له كتيف ، فقالوا : « إن هذا قتل ابنك هذا » . فلم يقطع حديثه ولانقض حبوته . ولما فرغ من حديثه التفت إليهم ، وقال : أين ابني فلان فجاء . فقال : يابني قم إلى ابن عمك فأطلقه ، وإلى أخيك فادفنه وإلى أم القتيل فأعطها مائة ناقة ، فإنها غريبة لعلها تسلو عنه[5] .

رابعا : ومما اتصف به العرب وتمتعوا به : الوفاء ، وهو يعد دليلا على سمو نفسياتهم ، واستقامة شجاعتهم ، واعتدال حياتهم ، فما نقضوا عهدا ، أو خالفوا وعدا ، وكانوا يرون : أن الغدر من كبائر الذنوب فحكموا بذلك قوتهم

---

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ١٠٧ .

(٢) الآلوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ص : ٩٩ .

(٣) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ١٠٧ .

(٤) أي : إذا ظفرت فأحسن ، وإذا قدرت فسهل ، وأحسن العفو . الآلوسي ، بلوغ الأرب ، ص : ١٠١ .
ابن منظور ، لسان العرب ، جـ : ٢ ، ص : ٤٧٥ ، مادة (سجح) .

(٥) الآلوسي ، بلوغ الأرب ، جـ : ١ ، ص : ١٠٢ .

وسيطرتهم على أنفسهم[1] ، فمع الشجاعة في العرب كان الحلم الواسع ، والوفاء الرائع . وهاتان الصفتان تجعلان الشجاعة تبذل في موضعها ، وتظهر حين يستدعيها المقام ، ولاتبدو في تهور أوطغيان ، وإنما تكون حماية للشرف ، وصيانة للمنزلة والعز والسلام[2] .

وإن اجتماع الشجاعة والحلم والوفاء في أمة ، يجعلها بعيدة عن الاستذلال ، وعن الاعتداء ، وعن الضرر . وإذا ما اشتهروا بهذه الصفات حازوا الثقة ، ونالوا التقدير ، واستحقوا التصديق في كل ما يقولون[3] .

وهكذا كان العرب الأمة التي ظهرت فيها الدعوة ، فحملتها إلى الناس في كل أرجاء الأرض ، تصحبهم ثقة الناس فيهم ، ومعهم في كل مكان التقدير والتصديق والأمان .

خامسا : لقد كان العرب أكمل الناس في الفهم ، وكانوا لايبارون في قوة ذكاء ، وإصابة حدس ، وحدة ألمعية ، وصدق فراسة ، يخبرون عن الغائب بقوة ذكائهم ، كأن قد شاهدوه ، ويصف لهم الحدس الصائب حال الورد قبل أن يروه ، ويشفون، أبعد شيء بحدة ألمعيتهم ، كأن ليس ببعيد[4] .

سادسا : كذلك قد تمتع العرب بفكر عقلي متقدم ، جعلهم يلامسون التوحيد عن قرب ، فجميعهم أقر بالإله الأعظم الذي يعلو كافة الآلهة التي هي وسطاؤهم عنده ، وشفعاؤهم إليه[5] .

وتعد ظاهرة الحنفاء : دليلا على مستوى التقدم العقلي عند العرب ، فقد خطب

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ١٠٨ .
(٢) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ١٠٧ .
(٣) السابق ، ص : ١٠٨ .
(٤) الآلوسي ، بلوغ الأرب ، جـ : ١ ، ص : ١٩ .
(٥) د . محمد رشاد خليل ، ملامح من دور الإسلام في بناء العمارة العربية قبل البعثة المحمدية ، ص : ٦٠٧ ، ط : الأولى ، سنة : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

الحنفاء في المجتمعات بأفكارهم ، ولم يقف في وجههم عربي ، بل إن المشركين العرب ، كانوا يعتزون ببقايا دين إبراهيم – عليه السلام – ويعدون خدمة البيت ، وحجيجه شرفا يورثونه لأبنائهم وأحفادهم(١) .

ويبدو سمو العرب جميعا في فكرتهم عن الإله الأعظم ، حين نقارنهم بسائر الأمم في إيجاز ، ذلك لأننا نرى الروم برغم أن المسيحية دين التوحيد ، فإنهم أبعدوها عن حقيقة التوحيد ، واشتغل مفكروها بفلسفات جوفاء عقدت الدين ، وجردته من بساطته ، وجعلت العامة في حيرة من فكرة الطبيعة الواحدة لذات المسيح ، أو الطبيعتين ، وقدسية العذراء ، وبشريتها ، إلى غير ذلك(٢) .

واليهودية تحولت إلى مذاهب متناقضة ، لايجمعها إلا الإيمان بعنصرية جنس مقدس ، هو العنصر اليهودي ، ولايوحدها إلا شعار الخداع لكل البشر ، ماعدا اليهود(٣) .

والفرس بعد أن كانوا يتقربون للنور والظلمة ، على أساس أنهما رمزان للخير والشر ، أصبحا يعبدانهما على أساس أنهما إلهان اثنان ويعبدون غيرهما من المظاهر الطبيعية(٤) .

سابعا : من الصفات التي تميز بها العرب : أنهم أحفظ من غيرهم ، فحفظوا على سبيل التفصيل أيام حروبهم ووقائعهم ، وما قيل فيها من شعر وخطب(٥) .. وعلى الجملة فهم يملكون قوة حفظ خارقة عند الخاصة والعامة ، ومع مر الأيام صار الحفظ ملكة لديهم ، توارثوها جيلا عن جيل(٦)

---

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ١٠٨ .
(٢) السابق ، ص : ١٠٩ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق .
(٥) الآلوسي البغدادي ، بلوغ الأرب . جـ : ١ ، ص : ٣٨ .
(٦) لمعرفة المزيد من خصائص وصفات العرب ، انظر : عبد الرحمن الكواكبي ، أم القرى ، وهو :

فالدعوة الإسلامية أثمرت أكلها بظهورها في الأمة العربية ، إذ ناسبتها طبيعتهم البدوية الحضرية ، وأخلاقهم الرفيعة ، وشجاعتهم الحليمة الوفية ، وذكاؤهم الحاد ، وفهمهم الدقيق ، وحافظتهم القوية إذ جاءت الدعوة إلى كل هذه المزايا ، فنشطتها وسمت بها ، وأزالت منها السلبيات الموروثة ، فوجد العرب أنفسهم بعد الإسلام تلقائيا يبذلون حماستهم وقوتهم للدعوة الإسلامية ، ويعطون شجاعتهم وإمكاناتهم لأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي خدمة دعوته ، فتحركوا إلى كل مكان من أجل نشرها ، تاركين كل مايهمهم ، وأصبح تعصبهم اندفاعا لتنفيذ أوامر الدعوة الإسلامية وتعاليمها .

وهذه الصفات التي اتصف بها العرب دون كثير من الناس ساعدت بغير شك ، على أن ينجحوا في نشر الدين ، وأن يذهبوا به إلى حيث شاء الله ، ولكن بعد أن هذب الإسلام من أخلاقهم وأصلح من عيوبهم ، وحال بينهم وبين كثير من الشرور التي كانوا عليها ...في جاهليتهم[١] .

وهكذا وضح السر في اختيار الأمة العربية ، لتظهر الدعوة الإسلامية فيها أولا . والله – سبحانه وتعالى – أعلم حيث يجعل رسالته .

عناية الله في اختيار المكان لظهور الدعوة

من دلائل الحكمة الإلهية العليا : أنه – سبحانه – لما اختار مكة لتكون أما لبلاد العالم ، واختار مسجدها ليكون أول بيت وضع للناس ، فقد هيأ بيئتها ، ومناخها وطبيعتها ، لتكون أصلح مكان في الأرض ، لنماء وثبات عقيدة الإسلام العالمية[٢] .

ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية ، ط : الثانية ، سنة : ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م ، طبع ونشر : دار الرائد العربي ، بيروت .

(١) د . عبد الحليم محمود ، الدعوة الإسلامية ، جـ : ٢ ، ص : ٥٠٧ .

(٢) عبد القادر أحمد عطا ، لماذا بعث الرسول في مكة ؟ ص : ١٤ ، ط : دار العلوم للطباعة بالقاهرة ، سنة : ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

وقد اشتهرت مكة منذ القديم بوضعها الخاص المتميز عن سائر المدن ، وقد حفظ العرب لها هذه المنزلة ، فأحاطوها بما يليق بها عن حب وعناية وتقدير ، فهي عندهم (أم القرى) وأصل المدائن ، وبها الكعبة المشرفة ، التي تحمل في ثناياها ذكرى إبراهيم – عليه السلام – وترمز إلى الخير المبارك من الله –تعالى –[١] .

ولقد توارث العرب منذ القديم حقيقة تتضمن أن العرب بسبب الكعبة في أمن وشبع ، لدرجة أنه لما ضاق الأمر ببني إسرائيل ، وجرهم وهم في مكة ، تفسحوا في البلاد ، وأخذوا معهم بعضا من حجارة الحرم ، يعظمونه ، ويلتمسون فيه الخير ، تعظيما للحرم ، وصبابة بمكة[٢] .

وتذكر كتب السيرة : أن العرب كانوا يعتقدون أنه ما من ظلم يقع في مكة ، إلا وتنزل العقوبة بالظالم أيا كان[٣] ، وما أراد مكة أحد بسوء إلا أهلكه الله[٤] .

وكثيرا ما حذر العرب حكماؤهم ، لهذا يقول أحدهم : « إياكم والإلحاد فيه(الحرم) فإنه بوار ، وايم الله لقد علمتم أنه ما سكنه أحد قط ، فظلم فيه وألحد إلا قطع الله – عز وجل – دابرهم ، واستأصل شأفتهم »[٥] .

وكان العرب جميعا في الجزيرة العربية ، يفهمون لمكة ، وللكعبة هذه المكانة ، فيحيطونها بالجلال والتقدير ، ويذكرون دائما أن أهل مكة أهل الله ، ولم يندهشوا كثيرا يوم هلك (أبرهة) وجيشه في مكة بل قالوا : أهل الله دافع الله عنهم ، وكفاهم مؤنة عدوهم[٦] .

---

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٧٦ .

(٢) الأزرقي ، أخبار مكة ، جـ : ١ ، ص : ٤٦ ، ط : الثانية ، سنة : ١٣٥٢هـ الناشر : المطبعة الماجدية .

(٣) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٧٦ .

(٤) فؤاد علي رضا ، أم القرى ، مكة المكرمة ، ص : ١١٧ .

(٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ : ١ ، ص : ٤٨ .

(٦) المصدر السابق .

كان هذا التقدير لمكة أحد أسباب اختيارها لظهور الدعوة كما أن الموقع الجغرافي للجزيرة العربية على العموم ، ولمكة على الخصوص ساعد على نشر الدعوة وإبلاغها ... وما يجدر أن نتنبه له أن هناك بعض الخصائص التي يحسن عرضها ، لنلتمس من معرفتها : الحكمة التي كانت من وراء اختيار المكان لظهور الدعوة . ويمكن عرض الخصائص على النحو الآتي :

أولا : أن آخر ما وصل إليه العلم في الدراسات التى قامت بها أقسام المساحة التصويرية بمراكز البحوث ، والتي استخدمت فيها الأجهزة الألكترونية ، والآلات الإحصائية ، والحسابات الرياضية ، والمنحنيات الاعتبارية لخطوط الطول والعرض ، والتي استهدفت تعيين مواقيت الصلاة في أي زمان وأي مكان على سطح الأرض لجميع أيام السنة ، هو أن (أم القرى) هي وسط اليابسة في الكرة الأرضية تماما ، وأن الكعبة الشريفة لذلك هي المركز تحديدا ، ولأن الأرض وهي تتحرك حول نفسها ، وحول الشمس لاتنقلب على نفسها فإن هذا المركز لايتغير ، وتستمر الكعبة المشرفة هي الوسط دائما[1] .

وعن ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[2] .

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[3] وأم القرى : أصل القرى وهي مكة ، وسميت بهذا الاسم إجلالا لها ، لأن فيها البيت ، ومقام إبراهيم . والعرب تسمي أصل كل شي : أمه ، ومن حولها من أهل البدو والحضر[4] ومن سائر طوائف بني آدم من عرب

(١) د . عبد الرازق ، أم القرى مركز الوسط الأمين . مقال بمجلة : العرب المجلد : ٥١ ، العددان : رجب وشعبان ، سنة : ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م . ص : ٤١ ، الباكستان .

(٢) سورة الأنعام ، آية رقم ٩٢ .

(٣) سورة الشورى ، آية رقم ٧ .

(٤) الفخر الرازي ، التفسير الكبير ، المجلد : ١٤ ، ص : ١٤٨ .

وعجم[١] . وسائر البلاد شرقا وغربا ، وسميت مكة (أم القرى) ، لأنها أشرف من سائر البلاد[٢] . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ** »[٣] .

يقول السهيلي – رحمه الله تعالى – : وفي التفسير أن الله – سبحانه وتعالى – لما قال للسموات والأرض :﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٤] لم يجبه بهذا إلا أرض الحرم[٥] .

ويقال – استنادا إلى روايات – : إن موضع البيت أول بقعة وضعت من الأرض . فقد روى البيهقي في الشعب عن ابن عباس – رضى الله تعالى عنهما – ، قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –« **أَوَّلُ بُقْعَةٍ وُضِعَتْ فِي الأَرْضِ مَوْضِعُ الْبَيْتِ ، ثُمَّ مُدَّتْ مِنْهَا الأَرْضُ ، وَإِنَّ أَوَّلَ جَبَلٍ وَضَعَهُ اللَّهُ – تَعَالَى – عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ : أَبُوقُبَيْس**[٦] ، **ثُمَّ مُدَّتْ مِنْهُ الْجِبَالُ** »[٧] .

وليس في الوجود كله مكان حظي بالشرف والطهر والمكانة في ضمير الإنسانية

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ : ٣ ، ص : ٢٩٤ .

(٢) السابق ، جـ : ٧ ، ص : ١٧٩ .

(٣) رواه أحمد في مسنده ، جـ : ٤ ، ص : ٣٠٥ .

ورواه الترمذي ، في صحيحه ، في كتاب المناقب ، باب فضل مكة ، جـ : ٥ ، ص : ٧٢٢ – ٧٢٣ وقال : حديث حسن غريب صحيح .

(٤) سورة فصلت ، آية رقم ١١ .

(٥) السهيلي ، الروض الأنف ، جـ : ١ ، ص : ١٢٨ .

وانظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ : ٧ ، ص : ١٥٦ .

وقيل : إن المتكلم من الأرض بذلك هو : مكان الكعبة ، ومن السماء : ما يسامته منها .. والله أعلم .

(٦) أبو قيس ، هو : الجبل الشرقي المشرف على الصفا .

الأزرقي : أخبار مكة ، جـ : ٢ ، ص : ٢٠٢ – ٢٠٣ .

(٧) رواه البيهقي ، في شعب الإيمان ، عن ابن عباس ، ولم ينسبه للسيوطي في الدر المنثور ، جـ : ٢ ، ص : ٢٦٦ ، إلا إليه .

عبر أجيالها وعصورها المتعاقبة كما حظي المسجد الحرام ومن ثم جعل التاريخ به ، واحتفى حفاوة لم تعهد لغيره في دنيا الناس .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾(١) .

وحسبنا هذه الآية وثيقة لتاريخ البيت في تلك البقعة ، التي سماها الله : المسجد الحرام ، وسماها : البيت العتيق . فأيُّ مسجد ذاك ؟ وأي بيت هو ؟ هو الكعبة التي جمع الله لها وصف المسجدية والحرمة ، والبيتية في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ.. ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾(٣) وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾(٤) .

وإن في وصفه بالعتاقة لإيذانا بأصالة في الشرف ، وتأكيدا بأنه أول بيت وضع في الأرض للعبادة .

فالبيت الحرام : هو النقطة الوحيدة التي تميزت دون سائر بقاع الدنيا ، وتمركزت فيها وحدها ركائز الحق ، وتغلغل في أعماقها جوهر التوحيد ، وكأنها تفردت لتمثل بؤرة للضوء ، الصالحة لإشعاع الهداية في [illegible] الإنساني .(٥) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : ٩٦ – ٩٧ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٤٩ – ١٥٠ .

(٣) سورة المائدة ، آية رقم ٩٧ .

(٤) سورة الحج ، آية رقم ٢٩ .

(٥) د . أحمد عبد الرحيم السايح ، مكانة الحرمين في الإسلام ، بحث ألقي بمؤتمر قدسية الحرمين ، الذي عقد بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية بالقاهرة ، من : ٢٣ – ٢٥ ربيع الأول ، سنة : ١٤٠٨هـ الموافق : ١٥ – ١٧ نوفمبر سنة : ١٩٨٧م وقد نشرته مجلة الجندي المسلم في العدد الرابع والخمسين ، ص : ٢٤ – ٢٩ ، الصادرة في شهر ذي الحجة ، سنة : ١٤٠٩هـ – الموافق : يوليو ١٩٨٩م من السنة السادسة عشر .

ثانيا : فإن البحث الموضوعي يبرز لهذه البيئة ، مقومات لم تكن متوفرة في غيرها من بيئات العالم القديم ، وإن كانت لها – كأي بيئة أخرى – مشكلاتها التي ينبغي عليها أن تقابلها .

فلقد كانت الجزيرة العربية متوسطة بين قارات العالم القديم كانت مفتوحة على أفريقيا من الجنوب الغربي ، والشمال الغربي ، ولها بها صلات برية وبحرية عبر سيناء والبحر الأحمر ، ومضيق باب المندب ، وخليج عدن ، وبحر العرب ، وظلت هذه الصلات قائمة عبر التاريخ ، وكانت على صلة بأرض الروم في ديار الشام وقتئذ ، وما وراءها في الغرب والشمال الغربي ، وكانت على صلة بأرض فارس وما وراءها برا وبحرا إلى قلب آسيا ، وأمطارها الموسمية في الجنوب والشرق[١] .

ولهذا تعد الجزيرة العربية بموقعها الجغرافي سرة العالم لأنها تقع في وسطه ، وتتصل بكل أجزائه وأقاليمه . ففي شرقها : توجد الدولة الفارسية ، وفي شمالها : توجد الدولة الرومانية ، وفي غربها : توجد مصر والحبشة ، وفي جنوبها : توجد الهند ،وغيرها ، وقد ساعد على التغلب على عوائقها الطبيعية من مرتفعات وبحار : أن العربي كان على خبر كامل بشعابها ، وطرق مواصلاتها[٢] .

وقد انعكس هذا على علاقات السلالات البشرية فيها ، فكانت من أنسب الأماكن وقتئذ ، إن لم تكن أنسبها جميعا للقاء السلمي ، والتعايش بين البشر ، كانت – أيضا – وسطا من حيث المكان ، ولم تكن الجزيرة العربية منطقة نائية ، كالشرق الأقصى ، أو جنوب أفريقيا ، أو غرب أوربا[٣] .

---

(١) د . عبد العزيز كامل ، الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية ، جـ : ١ ، ص : ٦٣٢ ، من البحوث والدراسات التي قدمت لمؤتمر السيرة والسنة الثالث الذي عقد بقطر .

عطية صقر ، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، ص : ٩٨ – ٩٩ ، ط : الأولى مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع ، سنة : ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

(٢) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٢ .

(٣) د . عبد العزيز كامل ، الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية ، جـ : ١ ، ص : ٦٣٢ .

ثالثا : تقع مكة والحجاز بوجه عام في نطاق منطقة الحرارة القصوى ويرجع الجغرافيون ذلك إلى : أن قسما كبيرا من الجزيرة العربية يقع في منطقة الزهو المدارية ، ذات الضغط العالي ، والمطر القليل ، والقسم الآخر يقع في حيز الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة ، التي تزداد حرارتها كلما تقدمت إلى الجنوب(١) .

ولقد أدى هذا الوضع : إلى حالة جدب شديدة ، نشأت من قلة المطر ، وندرة سقوطه ، لدرجة أنه لايسقط المطر في بعض أماكن الجزيرة إلا كل ثلاث سنوات ، أو أربع ، وبجانب قلة المطر لاتوجد أنهار في الجزيرة تمد الأرض بالري ، وتعطي للناس معاشهم وأسباب الحياة ، هذا الجدب الصعب جعل الناس يتجهون إلى السماء ، ضاجين بالاستغاثة ضارعين بالدعاء(٢) .

وقد ذكر الباحثون : أن العرب تأتيهم الأمطار في أوقات وتنقطع عنهم في غيرها ، فكانوا لذلك شديدي التعلق بها ، وتراهم كثيرا مايقلبون وجوههم في السماء ، وذلك من أعظم المذكرات التي تذكرهم بالله وحاجاتهم إليه(٣) .

رابعا : فإن حالة الجدب – المذكورة – جعلت الغالبية في العرب بعيدة عن الترف والنعيم ، منغمسة في الفقر والحاجة ، وهذا الوضع بدوره جعل الطبقة الثرية قليلة العدد ، مشهورة بالاستعلاء على الناس والاستغلال لبقية الفقراء والمحتاجين ، وكان من مفاسدها : أن نشرت الربا الفاحش بمكة ، وجعلت الفائدة أضعاف المال الأصلي . وقد صور القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى – وهو ينهى المؤمنين

= د . محمد رشاد خليل ، ملامح من دور الإسلام في بناء العمارة العربية قبل البعثة المحمدية ، ص : ٦٧١ .

(١) د . يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ... ص : ٦٢ .

(٢) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٧٧ .

(٣) علوي بن طاهر الحداد ، القول الفصل فيما لبني هاشم وقريش والعرب من الفضل ، جـ : ٢ ، ص : ١٤٦ ، طـ : الأولى ، الجزائر ، سنة : ١٣٤٤هـ .

عنه – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1] .

يقول المفسرون : كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله ، زاد في الأجل ، حتى يستغرق بالقدر الطفيف مال المدين كله[2] وأيضا : فلقد أطبق أغنياء مكة على جميع الشئون الاقتصادية بها ، فاشتروا الرقيق ، واستعبدوا الفقراء في توجيه قوافل التجارة الضخمة ، وهذا وضع يجعل الفقراء يستجيبون تلقائيا لدعوة عادلة ، قائمة على المساواة ، وتحريم الظلم وإحساس الفرد أيا كان ، ويندفعون إلى مساعدة هذه الدعوة التي تمنوها لخلاصهم ، واستشعروها من قبل ، في أنفسهم وخيالاتهم .

ومن هنا كان الفقراء ينصتون للدعوة ، ويتدبرونها ..أما المترفون الأثرياء ، فهم أعداء كل إصلاح ، وهم معارضو الرسالات دائما ، حفاظا على وضعيتهم واستغلالهم[3] ، لكن سرعان ما انهارت الطبقة المترفة أمام الدعوة ، فدخل الناس في دين الله أفواجا بعد الفتح .

يقول ابن خلدون : « إن الترف يبدو في بدايته قوة ، لكنه في النهاية ضعف يمضي ولا أثر له »[4] .

والمعروف عند الناس : أن الترف مفسدة ، وأنه يميل بالقوي إلى الدعة ، لما يتعود عليه أثناء الترف من حياة راغدة لينة[5] .

خامسا : لقد أدى هذا الجدب – الذي أشرنا إليه – بالعرب وأهل مكة ، إلى أن يبحثوا عن وسيلة للعيش ، فكانت التجارة ، وقد نظموها في رحلتين :

إحداهما : إلى الشمال صيفا .

---

(١) سورة آل عمران ، آية رقم ١٣٠ .
(٢) الزمخشري ، الكشاف ، جـ : ١ ، ص : ٤٦٣ .
(٣) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٧٩ .
(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : ٤٩٢ .
(٥) فؤاد علي رضا ، أم القرى ، مكة المكرمة ، ص : ١١٥ .

والثانية : إلى الجنوب في أثناء الشتاء .

وأدى اختلاط التجار العرب بالروم والفرس والهنود والأحباش ، خلال جولات التجارة : أن أخذوا كثيرا من نظمهم ، ونقلوها إلى الجزيرة العربية وقد اشتملت الحياة العربية على سائر النظم والعقائد[1] .

ويلاحظ أن مكة ضمت العدد العديد ، من الملل والأعراف ، بسبب وقوفها في مكان تلتقي فيه جميع الطرق الآتية من كل الجهات ، فالطريق الغربي الذي يبدأ من ظفار جنوبا ، وينتهي عند تيماء ، يمر بمكة ، والطريق الشرقي الذي يبدأ من ظفار جنوباً ، وينتهي عند صور بلبنان يتصل بمكة بواسطة طريق عرضي يبدأ من مكة ، وينتهي عند القطيف وتتصل مكة - أيضا - بالبحر الأحمر عن طريق مينائها جدة ، وبذلك كانت مكة معبرا رئيسيا للقوافل الآتية من الشمال أو الجنوب فأثرت بأوضاعهم[2] .

وهذا الأمر ساعد على وضع الأسس الإصلاحية التي لاتختلف من مكان إلى مكان ، وتناسب كل الأجناس ، وتناقش كل المعتقدات على اختلافها .

سادسا : أن البيئة المكية بيئة طاردة نافية لمن يقيم فيها ويدل على هذا المعنى : تسمية مكة (بكة) في القرآن . وهو اسم مشتق من البك ، وهو الطرد والنفي ، سميت بذلك ، لأنها تبك المقيمين فيها وتدفعهم إلى غيرها من البلدان والأقطار[3] .

وإنما كانت مكة طاردة ، لقسوة الحياة فيها ، في الأحقاب البعيدة من التاريخ ، فقد وصفها إبراهيم الخليل - عليه السلام - وهو يودع ولده إسماعيل ، وأمه هاجر عند البيت الحرام ، قائلا : ﴿رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٠ .

(٢) د . يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ... ، ص : ١٢٥ .

(٣) عبد القادر أحمد عطا ، لماذا بعث الرسول في مكة ، ص : ١٥ .

﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾[1] فهي بيئة مقدرة متحجرة الأرض كثيرة الجبال ، ملتهبة الجو ، منخفضة المكان ، تحيط بها الجبال من كل جهاتها ، فإذا تسعرت الشمس ، كانت نيرانها مسلطة على مكة من كل أقطارها ، فالصخور على أرضها ، ومن حولها تلفح الأجساد إلى جانب اللهب المسلط على أهلها من أشعة الشمس المباشرة لرؤوسهم من فوق ، فلا ماء ، ولازرع ، ولاثمر . ومن ثم فلم تكن مكة بلدا يهاجر إليها الغريب ، إلا لأسباب مادية بحتة . أما قريش : فقد كان منصبها اللغوي والديني سببا رئيسيا في بقائها في مكة[2] .

فالمادية وحدها ، أو الضرورة وحدها ، هي التي كانت تتحكم في بقاء سكان مكة في مكة ، في تلك الأيام البعيدة ، أما أن تكون مكة أرضا صالحة لنماء الأفكار الإنسانية ، وتفاعلها مع غيرها من الأفكار الفلسفية التي كانت في ذلك العصر ، فهذا شيء أبعد مايكون في التصور وفي الواقع ، فالفكر ولا سيما الفلسفة ، لايمكن أن ينمو إلا في بيئة مستقرة ورفيقة بالإنسان[3] .

سابعا : لقد فرضت الصحراء على العرب طباعا وأخلاقا خاصة تناسبهم ، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولا ، ثم صارت لهم على مر السنين جبلة وفطرة ، وصارت لهم عنوانا بين الناس ، وصقلتهم الحروب التي اكتوت الجزيرة بنارها ردحا من الزمن ، ونستطيع أن نزعم بأن تلك الجاهلية الضنكة ، والحروب التي اشتعلت قد صهرتا ذلك المجتمع وتقاليده .. فنشأت وتكونت مجموعة من القيم والمثل ، تعارف عليها المجتمع ، وآمن بها ، واحترمها والتزم بها[4] .

ثامنا : فإن التأخر الاقتصادي في الجزيرة تسبب في وجود طبقة عرفت بطبقة

---

(١) سورة إبراهيم ، آية رقم ٣٧ .

(٢) عبد القادر أحمد عطا ، لماذا بعث الرسول في مكة ؟ ص : ١٥ – ١٦ .

(٣) السابق ، ص : ١٦ ، بتصرف .

(٤) د . عفيف عبد الرحمن ، المثل والقيم ، ص : ١٢٧ ، من مجلة : مجمع اللغة العربية الأردني ، المجلد : ١٣ – ١٤ ، ذو الحجة ، ط : الأردن .

الصعاليك ، وقد اتحدت هذه الطبقة لنفسها بمراكز في الخلاء الواسع[1] .

ووجود هذه الطبقة دليل على ضيق موارد الجزيرة حتى مع وجود موارد التجارة .. ومن هنا : نستطيع فهم السبب في الهجرات[2]التي خرجت من الجزيرة العربية في أفواج متتابعة ، إلا أن ثقل القوة في العالم ، وتمركزها آنذاك في دولتي الفرس والروم اللتين استولتا على جميع الجهات المحيطة بالجزيرة العربية ، حبست القبائل في مكانها ، الأمر الذي أدى إلى توسيع هوة الخلاف بين القبائل بسبب القنص والصعلكة ، فقامت المنازعات المتكررة بينهم ، وقد استفادت الدعوة الإسلامية من هذا الوضع ، فلم تصطدم بتكتل واحد ، يطغى بقوته بل كان هناك دائما صوت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - من القبائل أثناء ضعف المسلمين وقلتهم ، واستفادت الدعوة كذلك بأن صفت مابين العرب من خلاف ، وأزالت الاضطرابات الموجودة فيهم ، فتوحدوا[3] .

تاسعا : يرى كثير من أهل الدراسة : أن الجزيرة العربية أحيطت بحواجز طبيعية منيعة ، إذ وجدت المياه في ثلاث من جهاتها والجهة الرابعة كانت مرتفعات

---

(١) د . يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص : ١٣٤ .

(٢) أما هجرات الفتوحات الإسلامية : فقد كانت أسبابها ودوافعها تنطلق من الإيمان بالإسلام ، وتبليغ الرسالة ، وحبا في أن يكون كل مهاجر ينطبق عليه قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « لأن يهدي الله بك رجلا واحدا ، خير لك من حمر النعم » . فهجرة الفتوحات الإسلامية غير الهجرات التي حدثت في الجزيرة العربية قبل الإسلام إذ أن الدوافع مختلفة . وأثبتت الدراسات : أن هجرة المسلمين لتبليغ الإسلام لم تكن أسبابها اقتصادية ، بدليل العربي الذي كان له ثراء عريض في مكة ، وهو : (ضمرة بن جندب) حينما علم بهجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة المنورة ، قال : احملوني إليه ، وكان مريضا لا يستطيع المشي ، وقد حملوه ، حتى مات في الطريق ، واختلف أهل المدينة في شأنه ، فنزل قوله تعالى : ﴿ **ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما** ﴾ . سورة النساء ، آية : ١٠٠ ، وبهذا لا تنسحب هذه الهجرات على هجرة المسلمين ، لنشر الإسلام وتبليغه في كافة أصقاع المعمورة فيما بعد . ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم جـ : ٢ ، ص : ٣٤٦ . ابن الأثير ، أسد الغابة ، جـ : ٣ ، ص : ٦١ .

(٣) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٢ .

وسهولا في الشمال . وهي حواجز تحتاج في عبورها إلى تدريس وتمرس شاق ، ما يتعلمها العربي إلا لحاجته ، أما غيره : فليس له إلى ذلك حاجة ... وبذلك وقفت هذه الحواجز كسد قوي أمام المجموعات الغازية ، من الفرس أو الروم[١] .

وقد ترتب على ذلك : أن الغزاة لم يستطيعوا الوصول إلى سرة الجزيرة العربية ، فاحتفظ العربي بسجيته وفطرته ولم تداخله تناقضات الفكر ، ولامتاهات الفلسفة والجدل .

ولو قارنا سائر الأماكن ، بالمكان الذي اختير لظهور الدعوة الإسلامية لوجدنا تلك الأماكن غير صالحة ، لأن تظهر الدعوة فيها ..فالفرس والروم ملكا قوة سياسية وعسكرية ، استعملت في العنف والقسوة ، كما أن سائر الأمم في هذا العصر كانت مهتمة بأفكار دينية خاصة بها .. ولم يحدث أن جمعت واحدة منها ماجمعته الجزيرة العربية من مختلف الملل والعقائد . كما أن كافة الهيئات حرمت أبناءها من النشاط الذي اكتسبه العربي ، بسبب خصائص بيئته ، وأيضا : فإن النزعة الدينية كانت راقية عند العرب ، بسبب مكة (أم القرى)[٢] ، والكعبة ، كما أن الجزيرة العربية تقع في وسط العالم المعروف آنذاك مع صيانتها بالحواجز[٣] .

---

(١) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص : ٧١ ، ط : السابعة ، دار القلم ، بيروت .

(٢) فائدة : وفي سبب تسمية مكة – (أم القرى) أربعة أقوال :

الأول : أن الأرض ، دحيت من تحتها قال ابن عباس ، وابن قتيبة : لأنها أقدم الأرض .

والثاني : لأنها قبلة تؤمها جميع الأمة .

والثالث : لأنها أعظم القرى شأنا .

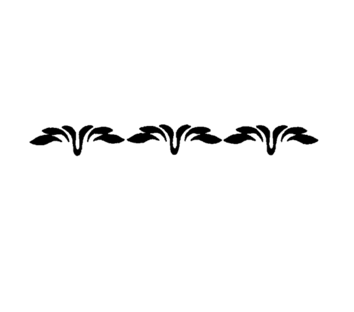
والرابع : لأن فيها بيت الله – سبحانه وتعالى – ولما جرت العادة أن بلد الملك وبيته مقدمان على جميع الأماكن ، سمي أما ، لأن الأم متقدمة .

الحسن البصري ، فضائل مكة والسكن فيها ، ص : ١٩ ، الهامش : تحقيق : د . سامي بكي العاني ، ط : الثانية ، مكتبة الفلاح ، بالكويت : سنة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

(٣) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٥ .

فالمكان الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية ، أحاطه الله بمجموعة من الظروف البيئية ، جعلته مكانا ملائماً للدعوة الإسلامية .





عناية الله في اختيار الزمان لظهور الدعوة

إن عناية الله – سبحانه وتعالى – التي تجلت في اختيار المكان الأول لظهور الدعوة ، تدفع بالباحث والمفكر إلى تلمس بعض مميزات الزمان ، الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية ، للوقوف على بيان فضل الله وكمال عنايته – جل شأنه – .

ففي أوائل القرن السابع ، وعلى حين فترة من الرسل ، ظهرت الدعوة الإسلامية هداية للناس أجمعين .. وأول ما يطالع الباحث في الإشارة إلى عناية الله – سبحانه وتعالى – : قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : **« بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ ، قَرْناً فَقَرْناً ، حَتَّى كُنْتُ مِن الْقَرنِ الَّذِي كُنْتُ فِيه »**[1] .

والمراد بالبعث – كما يقول العلماء – : تقلبه في أصلب الآباء من الأبعد إلى الأقرب فالأقرب .[2]

ولا يخفى على أحد : أن العلم يتعلق بسائر الحيثيات التي تحتاجها الدعوة ، لكي تصل إلى هدفها ، ومن بين هذه الحيثيات المختارة ، الزمن الذي ظهرت فيه الدعوة ، إذ لم يكن للعالم كله في تلك الفترة حالة لا توصف بالسوء ، ولا يقال فيها بالإجمال ، إلا أنها حالة فساد وانحلال . فلا حاجة للعلم ، ولا للسياسة ، ولا للأخلاق ، ولا للمرافق العامة ، لا توصف بتلك الصفة ، ولا تغلب فيها السيئات كل الغلب على الحسنات .

(١) رواه البخاري ، في صحيحه مع فتح الباري ، كتاب المناقب ، باب صفة النبي – صلى الله عليه وسلم – ، جـ : ٦ ، ص : ٥٦٦ .
ورواه أحمد ، في المسند ، جـ : ٢ ، ص : ٣٧٣ – ٤١٧ .
ورواه ابن سعد ، في الطبقات الكبرى ، جـ : ١ ، ص : ٢٥ .

(٢) أبو الطيب البخاري ، عون الباري لحل أدلة صحيح البخاري جـ : ٥ ، ص : ٣٧ ، ط : مطابع قطر الوطنية ، سنة : ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .

وإذا نظرنا إلى الأحوال في جملتها ، وجدنا أنها هي الأحوال التي تنادي في كل مكان بالحاجة إلى الدعوة الدينية .

إن ظاهرة واحدة ، كانت تلف تلك الظواهر جميعاً في طياتها وهي فقدان الثقة بكل شيء ، ولا معنى لذلك في كلمة موجزة ، إلا أن الثقة هي المطلوبة ، وأن الإيمان هو دواء هذا الداء الذي استشرى في كل مكان[1] .

الحالة الدينية :

كانت حالة الناس قد وصلت من الفساد إلى النهاية ، وبلغت البشرية الدرك الأسفل من الانحطاط ، وغشيت العالم كله ظلمات كثيفة ، من الكفر والجهل والفجور ، وغير الناس وبدلوا في الدين ، وحرفوا كثيرا مما أنزل الله على رسله من الكتب ، وعبدوا من دون الله آلهة شتى ، فالبوذيون كانوا يعبدون « بوذا » والهندوس كانوا يعبدون « البقر » ، والمجوس كانوا يعبدون النار . وكانت أمم تعبد الملائكة والجن ، وأمم تعبد الصور والتماثيل ، وأمم تعبد آثار الموتى ، وأرواحهم ، وكانت أمم تعبد مظاهر الطبيعة وتقدسها ، منهم : من يعبد الشمس والقمر ، ومنهم من يعبد الأنهر ، ومنهم : من يعبد الحجارة[2] ، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[3] .

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ الآية[4] وتفرق أهل كل دين مذاهب وشيع ، واشتد بينهم الخلاف والجدل ، حتى غدا الدين الواحد خليطا من المذاهب المتناقضة ، وسادت الخلافات والخرافات والأوهام ، وشاعت الإباحية والفوضى ، وارتكبت الفواحش باسم الدين[5]

(١) العقاد ، المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد ، جـ : ٧ ، ص : ٢٣٦ ، ط : دار الكتاب اللبناني ، سنة : ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

(٢) محمود الحسيني ، الدين المقارن ، ص : ١٤٣ .

(٣) سورة البقرة ، آية رقم ١١٣ .

(٤) سورة التوبة ، آية رقم ٣٠ .

(٥) أمين دويدار ، صور من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ص : ١٠٦ ، ط : الأولى ،

و﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1] .

وكان العرب أسوأ الناس حالا ، وأشدهم إمعانا في الجهالة والضلالة فقد أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وعبدوا العديد من الأصنام والأوثان والأنصاب والتماثيل ، والأشجار ، وكثبان الرمال ، وعبدوا الملائكة والجن ، واعتقدوا أن الهواء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والحجارة تتصرف في أمورهم ، وفي مستقبل حياتهم ، وكان إيمانهم بالله إيمانا مشوشاً مضطرباً ، يعتقدون أنه الإله الأكبر ، الذي يخلق ويرزق ، ويحيي ويميت ،﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[2].

ولكنهم يؤمنون بأن هناك آلهة أخرى ، تخلى لها - سبحانه - عن بعض التصرفات كشفاء المرضى ، ومنح الذرية ، وإنزال الغيث ، وتصريف الرياح وإبعاد المجاعة ، وكشف الضر ، وجلب الخير . وأن هؤلاء الآلهة وسائط بينهم وبين الله ، يتوسلون بهم لديه في التجاوز عن ذنوبهم ، والعفو عنهم[3] .

حالة الامبراطورية الرومانية :

إذا ذهب الباحث إلى البلاد المجاورة للبلاد العربية ، ليتعرف على أحوالها قبل بعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فلا يجد إلا اضطراباً سياسيا ، شاملاً ، وفوضى دينية عامة ، وانحلالا اجتماعيا فاشيا .

فالامبراطورية الرومانية كانت في القرن السابع الميلادي مفككة الأوصال ، وكانت قد قسمت إلى امبراطوريتين : امبراطورية شرقية عاصمتها : القسطنطينية ،

القاهرة .

(١) سورة الروم ، آية رقم ٤١ .

(٢) سورة العنكبوت ، آية رقم ٦١ .

(٣) أمين دويدار : صور من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ص : ١٠٧ .

وامبراطورية غربية ، عاصمتها : روسية . وكانت علامات الضعف وأمارات التفرق بادية في كل من الامبراطوريتين . وكان ذلك بسبب تنازع الأحزاب السياسية ، والفرق الدينية[1] .

لقد حل الدمار بالامبراطورية الرومانية ، وساءت أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكانت حضارتها قائمة على أكتاف الفقراء ، الذين كانوا يعملون لحساب الأغنياء ، فتاريخ هذه الدولة عبارة عن : إهمال وفساد ، واختلال وهرج ومرج ، وفوضى عمت جميع فروع الحكومة ، وقد تخاطفت أجزاءها الأمم الضعيفة ، وفتكت بها ثورات القائمين بخدمة القصر ، وأخضعها محبو الظهور ، من رجال الجندية ، فظهرت بها الجرائم وأعمال النهب والسلب ، واختفت آثار الثقافة والكرامة الشخصية[2] .

لقد ساءت الأحوال الاجتماعية والسياسية في جميع أنحاء الممالك الخاضعة للمسيحية ، فقد حال النظام القائم في تلك الجهات ، دون حرية التفكير ، وحرية الحكم على الأعمال ، ولم يتورع أصحاب أتباع المسيح الخاضعون لسلطانه ، أن يشوهوا وجه العصر ، ويجعلوه عصر اضطهاد وإزهاق للأرواح ، وذبح كل ثائر أو خارج على الكنيسة الرسمية[3] .

يضاف إلى ذلك : أنه لم تبق نحلة – في هذه الامبراطورية – من النحل الكثيرة ، إلا حكمت على مناقضيها بالمروق ، وتعددت هذه النحل بين « الأريوسية » و« النسطورية » و« اليعقوبية » و « الملكانية » على تباعد الأقوال في الطبيعة الإلهية ، ومنزلة الأقانيم الثلاثة منها ويأتي النزاع بين الكنيستين الشرقية

(١) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهوره ، ص : ٧٥ – ٧٦ .
عمر رضا كحالة ، العالم الإسلامي ، جـ : ١ ، ص : ٩٧ – ٩٨ .
(٢) المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم –) ص : ٣٥ ، ط : وزارة الأوقاف المصرية ، سلسلة مكتبة الإمام رقم : ٢ ، ربيع الأول ، سنة ١٣٨٩هـ .
(٣) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهوره ، ص : ٨٠ .

والغربية ، فيقضي على البقية من الثقة والطمأنينة ، ولا يدع ركناً من أركان العقيدة بمبعدة من الجدل والاتهام[1] .

حالة الامبراطورية الفارسية :

لم تكن الامبراطورية الفارسية قبل ظهور الإسلام بأوفر حظاً ولا أحسن حالاً من الامبراطورية الرومانية ، فقد كانت في حروب دائمة داخلية وخارجية ، وكانت تنافس الامبراطورية الرومانية في امتلاك آسيا ، وبسط النفوذ على سكانها ، وكثيرا ما كان مقدسو النار يهزمون عبدة المسيح وينهبون أموالهم ، وأحيانا كانت تدور الدائرة على الفرس ، فيغلبهم الروم ، ويقتلون منهم ، ويأسرون ويخربون ديارهم ، ويضمون أملاكهم إلى أملاكهم ، وكذلك كان القياصر والأكاسرة متنازعين ، لا يكفون عن المقاتلة إلا قليلاً[2] .

وفي أوائل القرن السابع الميلادي : اشتبكت الامبراطوريتان الفارسية والرومانية في حروب ، كانت سببا في ضعفهما معا ، وضعف فارس بوجه خاص[3] .

وفي الفترة التالية حدثت بفارس اضطرابات وفتن داخلية ، وتنافس على العرش عدد من الأكاسرة فكان الواحد منهم يُوَلَّى ثم يعزل بعد مدة قصيرة ، ومن المعروف أن ستة منهم تولوا العرش في أشهر قلائل وذلك بتدخل الجنود ، ورجال الحرس الامبراطوري ، الذين أطلقوا أيديهم وكانوا أصحاب التصرف المطلق في شئون الدولة ، فكانوا هم الذين يولون الأكاسرة ، ويعزلونهم كما يشاءون ، وبذلك سقطت هيبة الملك ، وقلت قيمة العرش ، وعمت الفوضى وانتشر الفساد وساءت حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية إلى درجة لا تطاق[4] .

ثم كانت الطامة الكبرى في عهد قباذ أبي كسرى أنو شروان الذي حضر بعثة

---

(١) العقاد : المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد ، جـ : ٧ ، ص : ٢٤١ .

(٢) عمر رضا كحالة ، العالم الإسلامي ، جـ : ١ ، ص : ١٠١ .
المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول) ص : ٣٦ .

(٣) المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول) ، ص : ٣٦ .

(٤) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهوره ، ص : ٨٨ .

النبي – صلى الله عليه وسلم – وتلقى رسالته بالسخط والوعيد ففي عهد قباذ ظهر (مزدك) داعية الإباحية والفوضى في الأموال والأعراض ولم يتزحزح هذا الداعية خطوة واحدة من الثنوية إلى التوحيد ، أو ما يشابه التوحيد ، وقال كما قال (ماني) من قبله : إن العالم كله في قبضة إله النور ، وإله الظلام ، غير أنه زاد عليه : أن النور يفعل بالقصد والاختيار ، وأن النور عالم حساس ، والظلمة جاهلة عنها[1] .

وبالرغم من نتائج المصلحين الذين اجتهدوا غاية الاجتهاد في تطهير الديانة المجوسية من الوثنية ، والمراسم الهيكلية ، لم تزل عقيدتهم جميعا في الأرواح والشياطين حائلا بينهم وبين التوحيد ، فإن موالاة الأرواح ومحاذاة الشياطين تسوقانهم إلى ضروب من العبادة والزلفى لطوائف شتى من الأرباب الصغار ، عدا الإلهين الأقدمين : إله النور ، وإله الظلام[2] .

حالة الهند :

وأما في الهند ، فقد انتشر مذهب إباحة النساء بواسطة دعاة أقوياء وقد بلغ من الفحش : أن الكاهن الهندي كان يحظى بالعروس في اللقاء الأول ، لينشر عليها وعلى زوجها البركة والنعمة ، وكانت الأناشيد التي تنوء بالمنكرات والفضائح تلقى في الاحتفالات العامة ، فتمد مستمعيها من الغواية بأسباب ، وتفتح لهم من الآثام كل باب[3] .

حالة بلاد العرب :

كانت حالة العرب قبل الإسلام طوائف متنازعة ، وقبائل متباغضة وديانات متنافرة ، ونحل متحاسدة ، ولم تستطع اليهودية ، ولا النصرانية – بالرغم من

(١) العقاد ، المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد ، جـ : ٧ ، ص : ٢٣٧ .
(٢) المصدر السابق ، ج : ٧ ، ص : ٢٣٨ .
(٣) محمد جاد المولى ، محمد المثل الكامل ، ص : ٦٤ ، ط : دار إحياء الكتاب العربي ، بمصر .

نشاط دعاتهما – أن تجمع شملهم ، وتؤثر في نفوسهم ، وكانت أطراف الجزيرة العربية لقمة سائغة في أفواه المغيرين من الأجانب فقوى نفوذ الأكاسرة في الحيرة ، وما حولها ، وظهر سلطان الروم في الشام وبلاد الغساسنة ، ودخل الأحباش ثم الفرس بلاد اليمن ، وكان هؤلاء الأجانب يحرضون أنصارهم من العرب على أعدائهم ، ومن يناصرهم من العرب فكان العربي يعادي أخاه العربي ويقاتله ، ويريق دمه ، لا لسبب سوى الانتصار للأجانب[1] .

وقد ظلت بلاد اليمن محلا للنزاع ، ومسرحا للقتال قرونا متعددة وكانت الحروب تقع لأسباب دينية ، وغير دينية ، بين يهود خيبر ونصارى الأحباش ، ومجوس فارس[2] والأمة العربية كانت قبائل متخالفة في النزعات خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة في قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها وسبي نسائها ، وسلب أموالها ... تسوقها المطامع إلى المعامع ، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات[3] .

ويضاف إلى ما سبق : أن نظام حياة العرب ، كان قائماً على الظلم ، ظلم القوي للضعيف ، وتحكم القادر في العاجز ، وكان اعتمادهم على القوة وحدها ، فكانت الإغارة ، والسلب والنهب ، والأخذ بالثأر ، وحب الانتقام هي العلاقة التي تربط بين القبائل بعضها وبعض ، حتى صارت الحرب نظامهم المألوف ، وحياتهم المعتادة ، وكانت مناقشة تافهة ، تكفي لإشعال حرب طاحنة ، وثارات يتوارثها الخلف عن السلف ، وكان القتال إذا اشتعلت ناره ، دام عدة سنين ، وقد يدوم عشرات السنين حتى غدا تاريخهم في الجاهلية سلسلة من الحروب الداخلية ، لا تكاد تنتهي ، ولم يكن لهم نظام جامع ، ولا حكومة موحدة ، بل كانوا قبائل متفرقة ، كل قبيلة تؤلف وحدة قائمة بذاتها ، مستقلة في نظامها

(١) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهوره ، ص : ٧٧ .
(٢) المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول) ص : ٣٧ .
(٣) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص : ١٨٠ ، ط : دار الهلال ، سنة : ١٢٨٢هـ .

وتقاليدها وأحكامها[1] .

ومن مظاهر الظلم في حياة العرب : أن المرأة عندهم ، لا تكاد تبرز حتى يعرف فيها طالع الشؤم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾[2] .

ولعل الأبيات الثلاثة التالية لإحدى البدويات ، تعبر تماما عن هذه الحالة ، عندما وضعت أنثى وغضب زوجها ، فامتنع من المجيء إلى بيته ، وأقام عند الجيران ، اشمئزازا ، فقالت زوجته معتذرة :

ما لأبي حمزة لا يأتينا — يقيم في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا — والله ما ذلك في أيدينا
فنحن كالأرض للحارثينا — ننبت ما قد غرسوه فينا[3]

تستقبل شر استقبال ، تورث ولا ترث ، وَتُمْلَكُ ولا تملك ، وكان البعض القليل من يملكونها ، يحجرون عليها التصرف فيما تملكه[4] . إلى غير ذلك من مظاهر الظلم ، والاستبداد ، والإذلال ، وكانت الأنثى على العموم مجلبة الحزن ، ومظنة العار والفقر[5] .

---

(1) أمين دويدار ، صور من حياة الرسول ، ص : ١٢ .

(2) سورة النحل ، الآيتان : ٥٨ – ٥٩ .

(3) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ : ٣ ، ص : ٤٨٢ ، ترجمه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه : أحمد أمين ، أحمد الزين،إبراهيم الأبياري ، ط : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بالقاهرة سنة : ١٣٦١هـ – ١٩٤٢م .

الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـ : ١ ، ص : ١٨٦ ، ط : مصر ، سنة : ١٣٤٥هـ – ١٩٢٦م .

د . نايف محمود معروف ، طرائف ونوادر من عيون التراث العربي ، الكتاب الأول ، ص : ١٧٣ – ١٧٤ ، ط : دار النفائس .

(4) صبري عبد الرؤوف ، وأحمد السايح ، المرأة المسلمة وقضايا العصر ، ص : ٥ ، ط : الأولى ، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ، سنة : ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

(5) أمين دويدار ، صور من حياة الرسول ، ص : ١١٢ .

تلك أحوال كانت في العرب والروم والفرس وغيرهم ، وهذه الأحوال التي عرضنا لها بإيجاز ، كانت مقدمات ، والمقدمات لا تأتي بنتائجها على وتيرة الداء الذي يتبعه الفناء ، ولكنها مقدمات العناية الإلهية التي تدبر الدواء للداء المستحكم على غير انتظار وبغير حسبان ، عالم إذا صح أن يقال عنه : إنه كان ينتظر شيئا من وراء الغيب ، فإنما كان ينتظر عناية الله .

وإذا كنا نعرض لأحوال العرب والفرس والروم والهنود ، فإنه يجدر بالباحث أن يتعرف على أهم خصائص العصر الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية . والدراسة والبحث يقفان بنا إلى أن هذا العصر قد تميز بالخصائص الآتية :

أولاً : تعدد الصراع :

فقد ساد العالم في هذا الزمان صراع هام ، فلم تخل أمة أو منطقة منه ، سواء كان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة ، أو بينها وبين غيرها . وأهم ما تميز به هذا العصر : هو تكرار الصراع تكرارا متلاحقاً ، فمنهزم اليوم ينتصر غدا ، وهكذا دواليك ، من غير توقف وغالباً ما كان الصراع بسبب سياسي ، أو اقتصادي ، أو ديني ، تبعاً لاختلاف البيئات .

ففي البيئة العربية ، لم ينشأ صراع بسبب السلطة ، خصوصاً بعد أن وزع (قصى) الأعمال بين القبائل ، وجعلها فيهم وراثية وإنما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد في أكثر الأحيان[1] .

وإذا ذهبنا نبحث عن الصراع في البيئة الرومانية ، وجدنا أن الصراع ينحصر في الدين والسياسة ، وفي الفرس كان الصراع هو الدين ، وفي الحبشة كان السبب كذلك هو الدين ، وفي الهند كان هو نظام الطبقات إلا أنه مع تنوع أسباب الصراع ، فإن هناك أسباباً كانت موجودة في سائر الأمم ، من أمثال : ظاهرة

---

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٧ .

الرق[1] .

لقد كانت دولتا العالم دولة الفرس في الشرق ، ودولة الرومان في الغرب ، في تنازع وتجالد مستمر ، دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة وأموال هالكة وظُلَمُ من الإحن حالكة [2] .

ومما يذكر أن الصراع الداخلي ساد سائر الأمم ، في الدولة الرومانية الشرقية قامت ثورات عدة ، أشهرها : ثورة الزرق والخضر في أثناء حكم (جستنيان) سنة : ١٥٣٢م ، التي طالبت بإقصاء وزير المالية ، وإجراء تعديلات كثيرة ، وقد قضى (جستنيان) على هذه الثورة بإهراق دماء كثيرة ، وصلت إلى قتل خمسة وثلاثين ألفا[3] .

وفي الرومانية الغربية نشأت دولة جرمانية ، وقامت ثورات عدة وحروب كثيرة ، من أشهرها في بلاد الغال « فرنسا » إذ ظهر الصراع على أشده ... وبين العرب كانت أيامهم كيوم داحس ، الذي استمر مدة طويلة وكذلك حرب البسوس ، وحرب حاطب بين الأوس والخزرج ، وقد استمرت إلى قبيل الإسلام[4] .

ومع الصراع الإقليمي وجد الصراع الدولي بين الفرس والروم ، إذ اشتبكت الامبراطوريتان ، الفارسية والرومانية ، في حروب كانت سببا في ضعفهما[5] .

وإن الصراع بكافة أشكاله وصوره ، يؤدي حتماً إلى تغييرات اجتماعية ومن المتغيرات التي يمكن أن تحدث بعد أي صراع ، ظهور قوي جديدة وبروز أفراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة .

---

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٧ .

(٢) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص : ٧٧ .

(٣) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص : ٨٨ .

(٥) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهوره ، ص : ٨٩ .

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من كل هذا ، لأن القوى الجديدة التي ظهرت في مكة ممثلة في الحنفاء والحكماء ، كانت ركيزة لانطلاق الدعوة .

ثانيا : تفتح الأذهان على خطورة هذه الصراعات :

إن التفتح الذهني يجعل المتصارعين لا يتعصبون لشيء معين ، ويبحثون عن قيمة إنسانية تخلصهم من هذا الصراع ، كما أن الطبقة المستضعفة تتمنى الخلاص ، والهروب مما هي فيه . وذلك لأن الانفتاح الذهني وذوبان التعصب الأعمى يفيدان الدعوة في كثير ، فبالذهن الصافي تفهم التعاليم والأفكار ، وبذوبان التعصب تتخلص الدعوة من عدو بغيض يقف في طريقها ، كما أن فكرة البحث عن قيمة راقية ، وخلاص للضعفاء ، بدأت تأخذ وضعاً مطردًا .

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ما سبقها بالشمول والعمق إذ انتشرت في العالم كله بشكل مستمر ومتجدد ، كما أنها لامست سائر حياة الناس وعاشت في نفوسهم وأحلامهم ، ولذلك كانت نهايتها أمنية صادقة على مستوى هذا الشمول وهذا العمق[1] .

ومن هنا : فإن الإنسان لا يعدو الحقيقة ، حين يذكر أن صراع هذا العصر ، كان من حكمة ظهور الدعوة فيه ، وجلت حكمة الله القدير – وحاشاه – أن يختار زماناً غير ملائم للدعوة ، أو يكون اختياره لهذا الزمان بالذات غير مقصود ، لأن الحقيقة الثابتة بكل إتقان ودقة ، والمتعلقة بكل شيء تنبع من قوله تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[2] .

ثالثا : النضج الفكري :

شاهد القرن السادس الميلادي تطوراً عقليًا في كل أرجاء المعمورة بشكل لم يعهده الناس ، حتى كان البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية إلى مرحلة بلغ

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٩ ، بتصرف .

(٢) سورة الرعد ، آية رقم ٨ .

فيها الإنسان أشده ، وأعادته الحوادث الماضية إلى رشده[1] . ولعل المراد من النضج العقلي المذكور : هو وصول الإنسان إلى التفكير الكلي المنظم ، الذي يستنتج من المحسوس ، ومن القضايا العقلية أشياء أخرى غيرها ، وينظر للحياة نظرة فيها الرضا ، القائم على التحليل والنقد ، أو السخط المعتمد على الدليل والمناقشة ، ويحاول دائماً السمو إلى العلا والتقدم ، ذلك أن طفولة الإنسان كانت تقوم على المحسوس فقط ، إذ تبهر بالعجائب ، وتسحر بالظواهر الخارقة[2] .

فالنضج العقلي قد ساد العالم كله ، وقد تجلى هذا الواقع في نقد ظهر في كل مكان ، متجهاً إلى الناحية الدينية وأوهامها ففي العالم المسيحي الواسع بدأت الأصوات ترتفع ضد أوضاع لا تتفق مع الطبيعة العقلية ، من أمثال : المناداة بألوهية الفطرة ، القائل : ببشرية المسيح ، وتكونه من طبيعة إنسانية واحدة ، وقد اختاره الله – سبحانه وتعالى – ليكون رسولاً نبيا من قبل الإله الواحد ، وأحاطه بالحواريين التي لا توجد مع الناس دفعاً إلى تصديقه في دعواه ، وما دفعهم إلى هذا الرأي إلا عقلهم الذي أبى التصديق بما هو وهم وخيال[3] .

ولو تركنا عالم المسيحية إلى غيرهم ، لوجدنا أن الهنود قد أيدوا ثورة « بوذا » على الهندوكية[4] في بعض تعاليمها ، ومحاولتها تبسيط العقائد والاهتمام بالأخلاق ، والعودة إلى الفطرة[5] .

وفي الجزيرة العربية – وبالرغم من تعمق القوم في تقديس الأصنام وتعظيم الحجر – فإن النضج الذي اتسم به العصر ، بدأ يظهر في العرب ، إذ اتجهوا

---

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص : ٢٢٥ .

(٢) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٩١ .

(٣) المصدر السابق ، ص : ٩١ .

(٤) الهندوكية ، هي : الهندوسية التي سبق الحديث عنها قبل قليل ، وهي : لفظ يطلقه الأوربيون على ديانة الهنود .

(٥) د . محمد عبد المنعم الشرقاوي ، ملامح الهند وباكستان ، ص : ١٤٣ ، ط : الأولى ، دار المعارف ، بمصر ، سنة : ١٩٥٢م .

بعقولهم إلى حياتهم ينظرون فيها ، ويضعون لها نظاماً يكفل الأمن والسلام[1] .

ولعل أوضح مظاهر النضج العقلي عند العرب ، ظاهرة الحنفاء الذين أخذوا يحللون بعمق وفهم فساد ما عليه الناس ، ويبينون الحاجة إلى دين يعرف بالخالق والطريق إليه[2] .

رابعاً : انتظار رسول جديد :

كان للنضج الذي ساد العالم ، وكثرة الصراع وتنوعه قبيل الدعوة أن ظهرت موجة من النقد للعقائد يوم ذلك ، والنقد على العموم ظاهرة تدل على عدم اكتمال الثقة في هذه العقائد ، التي توجه النقد إليها ومن هنا : صاحب عملية النقد شعور بقرب ظهور نبي من العرب يصلح فساد هذا العالم ، ويضع الحقيقة الفاصلة في مسألة العقيدة والسلوك وكل ما يسنده الناس إلى الأصنام ويطلبونه منها ، وقد وصل هذ الشعور إلى حد الاحتمال المؤكد ، لدرجة أن اليهود في المدينة « يثرب » كانوا ينتظرون هذا النبي على وجه اليقين ، وكثيرا ماذكروا لجيرانهم من الأوس والخزرج أنهم سيتبعون هذا النبي – صلى الله عليه وسلم – فور ظهوره ليتمكنوا به من سيادة العالم ، وتملك الناس ، وقتل الأوس والخزرج قتل عاد وإرم[3] .

والقرآن الكريم يقص ما كان منهم في هذا الشأن ، بقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4] أي : كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم ، ويقولون : إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم[5] وكانوا يقولون : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٩٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص : ٩٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص : ٩٥ .
(٤) سورة البقرة ، آية رقم ٨٩ .
(٥) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ : ١ ، ص : ١٧٨ .

الزمان ، الذي نجد نعته وصفته في التوراة ، ويقولون لأعدائهم من المشركين : قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم[1] وكانوا يسألون العرب عن مولده ، ويصفونه بأنه نبي من صفته كذا وكذا ، ويتفحصون عنه ، والآية نزلت في بني قريظة والنضير ، فقد كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج ، برسول الله قبل البعث[2] .

ورأي اليهود له وزنه عند جيرانهم ، قبل البعثة ، لأنه قد اشتهر عنهم معرفتهم ببعض أسرار الوحي وعلامته . فلقد روى أن مشركي مكة – لما بعث محمد – صلى الله عليه وسلم – فيهم : أرسلوا وفداً منهم يسأل اليهود عن رأيهم في هذا الرسول الذي أتاهم ودعاهم بدعوته[3] .

ولم تكن هذه المعرفة مخصوصة بيهود المدينة وحدهم ، فلقد انتشر خبرها في أماكن كثيرة ، ووصلت إلى أقصى الشمال ، لدرجة أن سلمان الفارسي ، حينما أراد أن يترك المجوسية ، ويبحث عن الدين الحق ليعتنقه ، سمع من يقول : إنه قد أظل زمان نبي ، وهو مبعوث بدين إبراهيم – عليه السلام – يخرج بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين حرتين ، بينهما نخل ، وبه علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة وليس ذلك بكثير على علماء اليهود والنصارى ، لأنهم ﴿ ... يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ﴾[4] .

يقول ابن كثير في تفسيره : وهذه صفة محمد – صلى الله عليه وسلم – في كتب الأنبياء ، بشروا أممهم ببعثه ، وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم ، يعرفها علماؤهم وأحبارهم[5] .

---

(١) الزمخشري ، الكشاف ، جـ : ١ ، ص : ٨١ .
(٢) الرازي ، التفسير الكبير ، جـ : ٣ ، ص : ١٩٤ .
(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ : ١ ، ص : ٣٢٠ .
(٤) سورة الأعراف ، آية رقم ١٥٧ .
(٥) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ : ٣ ، ص : ٤٨١ .

وكما وصل خبر ظهور نبي إلى أقصى الشمال ، وصل كذلك إلى أقصى الجنوب ، فقد روى أنه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير ، أفضى سيف بن ذي يزن لعبد المطلب ، بما علمه من كتبه أن نبيا سوف يظهر في العرب ، يضمن الزعامة لقريش إلى يوم القيامة[1] .

وهكذا ظهرت ملامح وطوالع النبوة في عقول الناس ، وفي كثير من الأماكن وهذه الملامح والطوالع في حد ذاتها تمهد للدعوة ، وتدعو إلى استماعها بشوق ، خصوصاً وقد حدثت أحداث كثيرة ، جعلت الناس ينتظرون التغيير على يد هذا الرسول المنتظر للدعوة الإسلامية ، وظهورها في العالمين .



(١) الأرزقي ، أخبار مكة ، جـ : ١ ، ص : ٩٤ - ٩٦ ، بتصرف .



حاجة الإنسانية إلى الإسلام

إن الإنسان آية الله في خلقه ، طبعه ربه على هذا النحو العجيب وفطره على هذه الصبغة الفذة ، مقترنة بعديد من الغرائز والميول ، وحينما تشده الأولى إلى زكاة النفس ، واستواء الفطرة ، وقصد السبيل ، فإن الثانية تشده إلى النقيض تماما بتمام ، وبين هذا وذاك يتطلع الإنسان ويرنو إلى ما يحفظ عليه نقاء معدنه ، وصفاء جوهره ، وزكاة نفسه ، وطهارة قلبه ، واعتدال خلقه ، وقصد سلوكه ، ويجعله على طول الخط سَوِيَّ المنهج ، قويم السبيل زكي الباعث ، نبيل المقصد ، متعلقاً بمعالي الأمور ، نائياً عن سفاسفها ، يتطلع إلى ذلك ويهفو إليه ، فلا يجده إلا في رحاب الإيمان بالله ، وأحضان الطاعة له ، وظلال القرب منه .

والإنسان بفطرته لا يملك أن يستقر في هذا الكون الهائل ، فلابد له من رباط معين بهذا الكون ، يضمن له الاستقرار فيه ، ومعرفة مكانه في هذا الكون ، الذي يستقر فيه[1] ، فلابد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله ، وتفسر له مكانه فيما حوله ، فهي ضرورة فطرية ، شعورية ، تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة ومتابعة بعثها ، لضمان استمرار حركتها وعملها وانطلاقها .

ومن هنا : كانت حاجة الإنسان إلى العقيدة حاجة فطرية مركوزة في فطرته ، ومغروسة في شعوره ، ومخلوطة بدمه وعصبه ، ولكنه قد يضل عن إدراك هذه الحقيقة ، فيشقى ويحار ، ويفقد الاستقرار[2] .

هذه الحاجة الفطرية في الإنسان إلى الدين ، هي التي يتحقق بها إدراك الإنسان

---

(١) د . أحمد السايح ، العقيدة في الإسلام ، مجلة (جوهر الإسلام) العدد الثاني والثالث ، ص : ١٦ ، من السنة الثانية ١٣٩٦هـ ، تونس .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

لحقيقة مقامه في هذه الحياة ، ورسالته وعمله ودوره[1] .

وقد أودع الله – سبحانه وتعالى – في الإنسان ما يستطيع به إدراك الحقائق الكبرى في الوجود[2] . وندبه الله – سبحانه وتعالى – للقيام بمهمة التعرف على هذه الحقائق التي يراها الحس والعقل والوجدان ، في الآفاق وفي النفس ، وفي كل شيء[3] . ففي الأرض آيات للمؤمنين ، وفي السماء مثلها وأعظم . فالفطرة الإنسانية السليمة هي التي تتوجه إلى الكون بروح متفتحة تكشف ما فيه من قصد وتصميم وإبداع ، وتنتهي إلى إدراك مكانها من هذا الوجود وتحديد كيفية سلوكها فيه ، ومن خلال هذا التصور تتحدد علاقة الإنسان بربه – عز وجل –[4] .

فالإنسان لا غنى له عن الدين ، لأنه يحسه في نفسه ، شعوراً ووجدانا ويشير إلى هذا الشعور ما رواه أبو هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « **مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَة** »[5] .

وقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[6] .

---

(١) أحمد محمد جمال ، الدين فطرة وميثاق ، كتاب ندوة المحاضرات لموسم حج سنة : ١٣٨٩هـ ، ص : ٢٠٠ ، ط : رابطة العالم الإسلامي ، بمكة المكرمة .

(٢) قال تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ . سورة النحل ، آية : ٧٨ .

(٣) قال تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾ سورة فصلت ، آية رقم : ٥٣ .

(٤) د . عبد الكريم عثمان ، معالم الثقافة الإسلامية ، ص : ١٦ ، ط : الثالثة مؤسسة الأنوار بالرياض ، سنة : ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م .

(٥) رواه البخاري ، في مواضع من صحيحه مع فتح الباري ، جـ :٣ ، ص : ٢١٩ .

(٦) سورة الأعراف ، الآيتان رقم ١٧٢ ، ١٧٣ .

ففي هذه الآية : بين الله – تعالى – أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم نسلا بعد نسل ، على هيئة ذر ، وذلك قبل خلقهم في الدنيا وأشهدهم على أنفسهم قائلا لهم : ﴿ **ألست بربكم** ﴾ فأجابوا: ﴿ **بلى شهدنا** ﴾ بذلك ، فالله – سبحانه وتعالى – أشهدهم على ربوبيته ، حتى لا يقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين ، أو غير عالمين[1] .

فالإيمان بالله فطرة فطر الناس عليها ، وإنما يضلون عنها بعض الوقت أو كل الوقت ، ثم يعودون إليها ولو عند فراق الحياة ، أو عند نزول الكوارث والأحداث ، فقد كان فرعون يدعي الألوهية ، ويقول لقومه ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾[2]. وسام بني إسرائيل سوء العذاب ، وكفر بموسى ، وإله موسى ، ولكنه عندما أدركه الغرق ، قال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[3] .

والمشركون بالله ، والكافرون به ، في كل الأجيال ، كانوا يعبدون الأصنام ويستقسمون بالأزلام . فإذا مَسَّهم الضر في البر أو في البحر ، لجأوا إلى الله يدعونه ويسألونه النجاة ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ ﴾[4] .

ومن هذا يتبين : أنه يوجد في طبيعة تكوين الإنسان استعداد فطري لمعرفة الله وتوحيده ، فالاعتراف بربوبيته متأصل في فطرة الإنسان ، وموجود في أعماق روحه ، فقد أنشأهم الله على الاعتراف بالربوبية له وحده . « فالاعتراف بربوبية الله وحده ، فطرة في الكيان البشري ، فطرة أودعها الله الخالق في هذه الكينونة ، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته . وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة ، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر ، وخالق البشر ، منذ

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ : ٣ ، ص : ٥٠٠ – ٥٦٠ .
(٢) سورة النازعات : آية رقم ٢٤ .
(٣) سورة يونس ، آية رقم ٩٠ .
(٤) سورة يونس ، آية رقم ١٢ .

كينونتهم الأولى »[1] .

والوجود كله عابد بطبيعته ، منصاع لوظيفته ، لا يسعه إلا أن يطيع ربه في ولاء لا يشوبه استنكاف ، ولا يطاوله كائن ، بل إنه جميعاً من أعلاه إلى أسفله يهتف في البداية بلغة المقهور أمام عظمة القاهر ، وهتاف العابد تجاه قدسية المعبود بما سجله الحق في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[2] .

والإنسان وإن كان يساوي الكون في العبادة بفطرته ، فإنه ينبغي عليه أن يفوقه منزلة ، وأن يعلوه فيها درجات ، تتناسب وتركيبه ، وتكوينه المتميز بالعقل والإرادة ، والاختيار ، والميول ، والنزعات ، والرغائب ، بيد أن الإنسان من طبعه أن ينسى أحياناً ، وأن يغفل أحيانا ، وأن يجحد أحياناً ، وأن يكفر ، لأن امتزاج الروح بالجسد ، وانشغال الإنسان بمطالب جسده ، وبمطالبه المختلفة ، التي تستلزمها حياته في الدنيا ، وعمارة الأرض ، قد جعلت من معرفة الإنسان بربوبية الله ، واستعداده الفطري للتوحيد ، عرضة لأن تطمره الغفلة ، ويغمره النسيان ، ويطويه اللاشعور في أعماقه ، ويصبح الإنسان في حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطري ، ويبعد عنه النسيان ، ويبعثه من أعماق اللاشعور ، فيظهر جليّاً واضحاً في الإدراك ، والشعور ، ويتم ذلك عن طريق تفاعل الإنسان مع الكون[3] وتلك فطرة فطر الله الناس عليها ، وصبغة صبغهم بها ، لافكاك لهم منها ، ولا شذوذ لهم عنها .

فعاطفة التدين أو الاعتقاد بدين من الأديان أمر غريزي ، ومشترك بين الناس عامة في كل عصر ومكان ، فإنه لم تخل جماعة من الناس في أي زمان من عقيدة

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، جـ : ٣ ، ص : ١٣٩١ .

(٢) سورة فصلت ، آية رقم ١١ .

(٣) د . محمد عثمان نجاتي ، القرآن وعلم النفس ، ص : ٤٧ ، بتصرف يسير ، ط : دار الشروق ، بالقاهرة ، سنة : ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

دينية على نحو ما – « وقد أثبت التاريخ أنه قد وجد في الماضي السحيق جماعات إنسانية من غير فلسفات وعلوم وفنون ، ولكن لم توجد قط جماعة إنسانية من غير دين »[1] إذ لابد في حياة الناس من نظم تلم شتاتها ، وترفه حياتها ، وتضمن لها أسباب النهوض والتقدم ، ويعيش الناس في ظل هذه النظم على قواعد الحق والعدل ، في أمن وسلام ، وقد كرم الله الإنسان بالعقل لكنه أودع فيه نفساً أمارة بالسوء ، وهو يعيش في صراع بين عقله الهادي إلى الصلاح ، ونفسه الأمارة بالسوء ، فكان من تمام نعمته عليه أن وضع له النظم التي توصله إلى التغلب على النفس ، وسد منافذ الشيطان إليها ، فحمله أمانة التكليف ، وأخذ عليه العهد بأن يعبده ولا يشرك به شيئا ، وأمده بهداية الرسل – عليهم الصلاة والسلام –[2] .

إذن « لكي تتحقق الحكمة الإلهية في خلق الإنسان ، ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشادا للملأ الأعلى : ﴿ .. قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ .. ﴾[3] لابد لقوة الخير في الإنسان من مدد يُعينها ويغريها على سَدِّ منافذ الشر والطغيان »[4] .

ومن هذا يتبين : أن الدين للإنسان من الشئون الضرورية التي لا حياة له إلا بها[5] . والله – سبحانه وتعالى – قد خلق الناس، ولم يتركهم وشأنهم بل اختار لهم نظما وأحكاما تسعدهم في الدنيا والآخرة ، وذلك لأن الإنسان عاجز عن إدراك المغيبات ، ويتأثر تفكيره بمؤثرات من الزمان والمكان والمجتمع وهو

---

(١) د . محمد يوسف موسى ، الإسلام والحياة ، ص : ٧ ، ط : مكتبة وهبة بالقاهرة سنة : ١٣٨٠هـ – ١٩٦١م .

(٢) د . شوكت محمد عليان ، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر ، ص : ١٢٦ ، ط : دار الرشد ، بالرياض ، سنة : ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

(٣) سورة البقرة ، آية : رقم ٣٠ .

(٤) محمود شلتوت ، من توجيهات الإسلام ، ص : ٩ ، ط : مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، سنة : ١٣٧٩هـ – ١٩٥٩م .

(٥) المصدر السابق ، ص : ١٤ .

عاجز عن حمل غيره على طاعته ، لعدم قدرته على القهر الذي يرغم الناس على كمال الطاعة ، ولهذا جعل الله - سبحانه وتعالى - في كل أمة رسولا منها ، وأيده بالمعجزات ، وأمده بتعاليم السماء ، لينشر الخير ويعالج الشر ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1] ، وقد شرع الله - تعالى - لخلقه ما يناسب حالهم ، ويتلاءم مع ظروف حياتهم ، وقوة إدراك عقولهم ، وقوة احتمالهم[2] .

وإذا كان الدين والتدين أمراً غريزيا وفطرياً في الإنسان، في كل زمان- كما عرضنا- فإن الدين الإسلامي هو : الدين الحق الذي رضيه الله -تعالى - للناس جميعا . والآية الكريمة التي عدت الدين عند الله الإسلام ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[3] . تعني : مجموعة المبادىء الإسلامية وتعاليم الإسلام ... فالإسلام مر بمراحل كبيرة عبر أنبياء الله ورسله إلى أن انتهى إلى المرحلة المتكاملة في رسالة محمد - عليه الصلاة والسلام - التي جاءت إلى الإنسانية كلها . إذن رسالة الإسلام هي الإسلام الشامل للإنسانية في وحدة إيمانها بالله ، قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا.. ﴾[4] ولهذا كان الإسلام يشتمل على امتداد زماني في الفكر الديني ، يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها ، ويشتمل على شمول موضوعي يغطي مجالات الحياة جميعا ، ويشتمل على شمول يضم الأديان كلها ، ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها »[5] .

فالديانات وإن تعددت في الفروع والتكاليف والأعمال ، فقد اتحدت في

---

(١) سورة النساء ، آية رقم ١٦٥ .

(٢) د . شوكت محمد عليان ، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر ، ص : ١٢٧ .

(٣) سورة آل عمران ، آية رقم ١٩ .

(٤) سورة المائدة ، آية رقم ٣ .

(٥) د . أحمد السايح ، الفضيلة والفضائل في الإسلام ، ص : ٣٠ ، ط : مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، سنة : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

المصدر الذي صدرت عنه ، وهو الله - تعالى - واتحدت - أيضاً - في الأصل الذي دعت إليه ، وهو التوحيد ، فالقدر المشترك بين الرسالات جميعا هو : تصحيح العقيدة أولا ، ثم معالجة الأمراض الخلقية والاجتماعية الموجودة في تلك البيئات ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[٢] وقال تعالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[٣] .

ولقد جاء الإسلام في جانبه الإيماني ، يؤكد هذه الأسس ، التي أكدها كل نبي ، ولكنه في الجانب الذي يستتبع الشريعة ، جانب الالتزام والعمل كان الإسلام الفصل الأخير في تكامل التشريعات .

وهذا الطابع الشمولي الملتقي في أسس العقيدة ، والمتكامل في التشريع هو الذي جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر ولعل هذا هو السر الذي جعل من الإسلام كلمة تختص بالدين الذي جاء به رسول الإنسانية محمد ﷺ[٤] .

وكلمة الإسلام ، وفي الإطار اللفظي تعني : التسليم والخضوع ، وفي مفهوم الدين يراد منها ، التسليم والخضوع لله وحده ، لا شريك له ، وبهذا المعنى أطلقت على كل من آمن بالله ، وسلم الأمر لله ، فأتباع كل نبي ، وكل من يدين لله من الأديان السماوية ، هم مسلمون بهذا المعنى[٥] .

---

(١) سورة النحل ، آية رقم ٣٦ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية رقم ٢٥ .
(٣) سورة الشورى ، آية رقم ١٣ .
(٤) د . أحمد السايح ، الفضيلة والفضائل في الإسلام ، ص : ٢٨ - ٢٩ .
(٥) المرجع السابق ، ص : ٢٩ بتصرف .

ووحدة الإيمان حقيقة تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة ، لا تقبل الجدل ، أو التشكيك ، ولا يغير من واقعها وجود فواصل البعد الزمني بين الأنبياء ، الذين أرسلهم الله إلى عباده[1] .

فالإيمان بالله – سبحانه وتعالى – ليس غريزة فطرية ، بل هو ضرورة ، فالدين عنصر ضروري ، والإنسانية بحاجة إليه ، للكمال النفسي والروحي ، فالإنسان جسم وروح ، والجسم يتغذى بالطعام والشراب ، بينما تتغذى الروح بالإيمان والعقيدة ، وعلى ذلك فالإسلام منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة ، محقق لمصالح الفرد والجماعة ، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق ، فليس دينا فقط ، ولكنه دين ونظام وحياة ، لا تنفصل فيه العلاقة بين الله والإنسان ، عن الصلة بين الإنسان والإنسان ، وهو ينظمها جميعا[2] .

فالعقيدة الإسلامية ضرورة للإنسان ، وذلك لرفع مستواه والمحافظة عليه من الانحراف المادي والإلحادي .

ومن القواعد المقررة أن الإنسان مدني بطبعه ، ومعنى ذلك أن الإنسان بفطرته يميل إلى التعارف والتعايش مع غيره ، ولذلك جعل الحق – سبحانه وتعالى – التعارف بين الناس من أهم أسباب خلقه لهم ، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[3] هذا التعارف ليس مقصودا لذاته ، وإنما جعل أولا غذاء لطبيعة الإنسان ، وثانيا : وسيلة للتعارف على كل ما فيه إسعاد البشرية ، وتحقيق حياة أفضل لأفرادها في جانبها المادي

(١) د . يوسف القرضاوي ، العبادة في الإسلام ، ص : ١٨ ، ط : المكتب الثقافي ، بالقاهرة .

(٢) أنور الجندي ، منهج الإسلام في بناء العقيدة والشخصية ، ص : ٢٩ ، ط : دار الاعتصام بالقاهرة .

(٣) سورة الحجرات ، آية رقم ١٣ .

والفكري ، وبين ذلك المفكر محمد عبد الله دراز ، فيقول : « إنه لا قيام للحياة في الجماعة ، إلا بالتعاون بين أعضائها ، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته ، ويحدد حقوقه وواجباته ، وهذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع ووازع يكفل مهابته في النفوس ، ويمنع انتهاك حرمته[1] .

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر – دون أن نجانب الصواب – : أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافىء قوة التدين ، أو تدانيها في كفالة احترام شرع الله وضمان تماسك المجتمع ، واستقرار نظامه ، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه والسر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن أفعاله وأعماله الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره ، ولا يوضع في يده ولا في عنقه ، ولا يجري في دمه ، ولا يسري في عضلاته وأعصابه ، وإنما هو معنى إنساني روحاني اسمه الفكر والعقيدة . وقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع ، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية ، بل يتأثران بها »[2] .

وليست قوانين الجماعات ، ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة ، تحترم فيها الحقوق ، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن ، أو العقوبة المالية لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون .

والقانون إما إلهي أو وضعي : لأن كل حضارة شطران : شطر روحي ، وشطر مادي ، فالشطر المادي الذي يعتمد على الحس والعقل وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالشطر الروحاني أو النظر ، والشطر النظري : العقيدة والأخلاق ، والتشريع ، ونظام المجتمع[3] ولذلك جاءت العقيدة الإسلامية كاملة هادية للعقل في الجانب النظري ، فشملت التشريع ، والأخلاق ، ونظام المجتمع ، ومن

---

(١) د . محمد عبد الله دراز ، الدين ، ص : ٩٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص : ٩٨ .
(٣) د . عبد الحليم محمود ، الإسلام وتنظيم المجتمع ، ص : ٥ ، ط : دار الكتاب العربي ، بمصر .

خصائص الوحي فيما يتعلق بالتشريع : أنه هاد للعقل ، وكما أن الدين هاد للعقل ، كان لابد في استخدام العلم من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية ، وعمارة الأرض ، لا إلى نشر الشر والفساد ، ذلكم الرقيب هو : العقيدة والإيمان .

ولا يخفى على أهل العلم : أن من الخطأ المبين أن يظن بعض الناس أن في نشر العلم والثقافات وحدها ضمانا للسلام ، والرخاء ، وعوضاً عن التربية والتهذيب الديني والخلقي[1] ذلك أن العلم سلاح ذو حدين ، يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير[2] فكما يستعمل للخير ، يستعمل كذلك للشر ، فلابد للعلم من تربية عالية ، وتوجيه سديد ، وإيمان راسخ يوجه المجتمع ، وذلك أن وظيفة العلم محصورة في الجانب الحسي المحض فهو يقف عند حدود لا يتجاوزها ، بينما وظيفة الدين بالحياة ذات مجال رحب . فالإسلام بما حواه من هداية إلهية وتشريعات سماوية يكفل للمجتمع الإنساني كل عوامل السعادة ، والأمن ، والاستقرار ، ولا يكون ذلك عن تشريع وضعي ، يضعه فرد ، أو جماعة معينة ، ذلك لأن الإنسان مهما سما فكره ونضج عقله ، لا يمكن أن يحيط بكل ما يوفر للإنسانية أمنها واستقرارها .

لقد بين الله – سبحانه وتعالى – بالدين الإسلامي ، وهو خاتم الرسالات الإلهية ما هو حق وخير في جميع شئون الحياة فهو لم يترك الإنسان سدى ، بل بين له الرشد من الغي ، ووضعه على الجادة الصحيحة والطريق السوي ، فيما يختص بالعقيدة والسلوك الفردي والاجتماعي ، والعلاقات التي تربطه بغيره من الناس جميعاً ، فالدين الإسلامي فيه صلاح للناس جميعا حتى الذين لم يرزقوا حظا وافرا من التفكير العقلي السليم ، ولذلك كان الوحي الإلهي رحمة عامة لجميع الناس ، ولهذا نرى الدين ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية ، ونراه كفيلا بصدور صاحبه في أقواله وأعماله عن عقيدته ، وضميره ونفسه ، وعن مراقبته

---

(١) د . محمد عبد الله دراز ، الدين ، ص : ٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص : ٩٩ .

لله في السر والعلن ، لا خوفا من الناس ، أو عقاب القانون الوضعي ، هذا العقاب الذي يفلت منه الكثير من الناس[1] .

والله الذي خلق الإنسان ، وركب فيه طبائعه ونوازعه ، هو الخبير بكل علله ، وأدوائه ، والعليم بوسائل شفائه ، هو وحده الذي يقدر أن يضع للجماعات الإنسانية من الشرائع والنظم ما يحقق لها أسباب السعادة ، وجميع وسائل الأمن والاستقرار ، وذلك بالدين الذي يدعوه إليه ، فهو السلطان المهيمن على نفوس المؤمنين به ، ويحمله على الأخذ بتعاليمه ويدفعهم إلى القيام بما سنه لهم من تشريع وتنظيم ويدفعهم إلى التحلي بالفضائل ، ويحول بينهم وبين ارتكاب الرذائل ، وليس هناك وراء الدين شيء يهيمن على النفوس ، غير نظام خالق النفوس[2] .

فالإسلام نظام رباني ، يقوم على مبادىء سياسية ، رضيها الله لعباده دستورا يقودهم في دنياهم إلى حياة كريمة ، ويعدهم في أخراهم لميراث جنة عرضها السموات والأرض .

فالإسلام هوالرابطة التي جمعت البشرية على الإيمان بالله واليوم الآخر ذلك أن القصد من الدين ليس إلا تزكية النفس ، وتطهير القلب ، وظهور روح الامتثال والطاعة ، واستشعار عظمة الله ، وإقرارالخير والصلاح في الأرض ، على أساس قوي متين ، من ربط العبْد بخالقه[3] .

فهو إذن مطلب إنساني ، رفيع يغذي جانب الروح ، ولا ينسىٰ حاجة العقل ، وبعبارة أخرى : هو مطمع العقل ، وغاية الروح ، وبجانب ما للدين من وظائف نفسية تجعل منه غذاء ضروريا لقوى النفس ، وعصارة مقومة لحيويتها توجد له

---

(١) د . محمد يوسف موسى ، الإسلام والحياة ، ص : ٨ .

(٢) د . محمد حسين الذهبي (الدين والتدين) دراسة بمجلة البحوث الإسلامية جـ : ١ ، ص : ٥٤ الصادرة سنة ١٣٩٥هـ – طـ : دار الإفتاء والبحوث بالرياض .

(٣) محمود شلتوت ، من توجيهات الإسلام ، ص : ١٨ .

وظائف اجتماعية ، لا يكون موضوعها الفرد ، وإنما يكون موضوعها المجتمع ككل[1] .

وهكذا يتبين للباحثين والدارسين : أن العقيدة الإسلامية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية ، في ملكاتها ومظاهرها . ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين من طبيعة الإنسان نفسه ، فقد خلقه الله - تعالى - ومنحه طبيعة الكائن المتكيف ، وعلى ذلك فحاجة الإنسانية إلى الدين نزعة فطرية وأصيلة ركبت فيه ، وفطر عليها ، ولذلك يكون الدين هو الرقيب الذاتي داخل النفس ، يدفع الإنسان إلى مراقبة الله ، الذي يعلم السر وما تخفي الصدور فيكون دافع الدين والاعتقاد شاملاً لجميع القوى المختلفة : الجسمية ، والروحية والنفسية ، والخلقية والاجتماعية .

وبعد هذا العرض ، يمكن للإنسان أن يستوضح وظائف الدين وحاجة البشرية إليه .

فالدين يزكي النفس ، ويطهرها ، ويقيم في حواسها الوازع القوي الذي يحول دائماً بين الإنسان ، وبين نوازع السوء والضلال فيه ، وذلك أنه يشعر دائماً بمراقبة الله له في كل شيء ، ومن هنا تزكو نفسه بفعل الخير وعمله ، والبعد عن الشر ، وهذا مبلغ ما ينبغي أن تسعى الإنسانية إليه .

فالإنسانية بحاجة إلى الدين ، لأنه جزء من فطرة الإنسان وطبيعته ولا يمكن لإنسان عاقل أن يستغني عن جزء من فطرته وكيانه ، فهو الوسيلة الوحيدة التي نأمن مخاطرها ، ونضمن نتائجها ، لتحقيق الحياة الإنسانية ... فالدين يقوم نظاما يدعو إلى الفضيلة واعتناقها ، كما يقيم دستورا حكيما يحفظ للإنسان إنسانيته ، كما يحفظ له نفسه وماله .

---

(١) د . محمد عبد الرحمن بيصار ، العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ، ص : ٩٢ ، ط : الرابعة ، الأنجلو المصرية ، بالقاهرة .

وكما أن حاجة الإنسانية إلى الدين لحفظ النفس ، والمال ، والعرض ، كذلك فإن الإنسانية في حاجة إلى الدين ، لتربية الإنسان الذي كرمه الله – تعالى – فقال :﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[2] .

وعلى ذلك فإن احتياج الإنسانية عقيدة وسلوكا نزعة فطرية ، وأصيلة ركبت فيه ، وفطر عليها . ومن هذا المنطلق يصف القرآن الكريم الدين بأنه الحياة وبأنه النور الذي يضيء للسالك الطريق ، قال تعالى :﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3] .

فالعقيدة تقوم من المجتمع مقام الروح من الجسد ، ولسعادة المجتمع لابد له من العقيدة الصحيحة ، التي تنير الطريق ، وتحدد أسلوب معاملة الفرد للجماعة ، والجماعة للفرد .

ولقد كان لهذه العقائد والأصول والمباديء الإنسانية ، التي قام الإسلام عليها ، ولما قام عليه هذا الدين من المساواة والعدالة والإحسان ، كان لذلك أثر بالغ في سرعة انتشاره ، وحسن تقبل الناس له في أقطار العالم المختلفة ، كما كان ذلك من العوامل الحاسمة ، والأسباب القوية ، فيما أدركه الإسلام من عز ، ومجد وسلطان ، سعد به العالم الذي عاش تحت لوائه[4] .

فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين ، ومن حاجة البشرية لهذا المنهج

---

(١) سورة التين ، آية رقم ٤ .

(٢) سورة الإسراء ، آية رقم ٧٠ .

(٣) سورة الأنعام ، آية رقم ١٢٢ .

(٤) د . محمد يوسف موسى ، الإسلام والحياة ، ص : ٢٥ .

نستمد يقيننا الذي لا يتزعزع في أن المستقبل لهذا الدين المتعطشة إليه البشرية جمعاء[1] .

فالعقيدة هي أساس قيام المجتمع ، وأساس صلاحه أو فساده ، بل هي أساس بقائه واستمراره ، فهذا الدين في حقيقته النقية المصفاة ، له أثره المبارك في تهذيب النفس ، وإسعاد الإنسان ، وتوجيه الحياة وجهة الحق والخير ...

إن الدين ضرورة من ضرورات الإنسانية الراشدة ، لا تغني عنه فكرة عقلية ولا تنظيم وضعي[2] قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[3] .

لقد كان الإنسان في الماضي يعبد ما لا ينفع ، ولا يضر ، وكان يخاف من كل شيء ، فجاء الدين الحق ، ودعا الناس إلى التحرر من خوف غير الله وما عداه مخلوقا من المخلوقات ، وبهذا تغيرت نظرة الإنسان إلى كل شيء .

إن العقيدة الإسلامية تقوي الاتصال بالله ، وتبعث في الناس اطمئنانا يقوي عزيمة المؤمن ، فلا يصل إلى نفسه اليأس ، ويتغلب على مصاعب الحياة بقوة الإنسان .

وإن الباحث : إذا تأمل أحوال الإنسانية في هذا العصر ، فسوف يجد أنها في أمس الحاجة إلى الإسلام .

فالحضارة الغربية وصلت إلى أعلى مستوى من الرقي العمراني ، والتقدم العلمي الهائل ، ولكن قصة البشرية – برغم التقدم الحضاري – فيها مساوىء كثيرة ،

---

(1) سيد قطب ، المستقبل لهذا الدين ، ص : ١١٤ ، ط : السادسة ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، مطبعة الفيصل ، سنة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

(2) محمود شلتوت ، من توجيهات الإسلام ، ص : ٢٣ .

(3) سورة النساء ، الآيتان : ١٧٤ – ١٧٥ .

زلت فيها أقدام البشر ، وضاعت عقولهم . فقد أطلقت الحضارة الغربية حرية الإنسان ، وحررت غرائزه المكبوتة ، وتحولت الحريات إلى انحراف في الغريزة ، وإلى شذوذ في الطبيعة ، وإلى عدوان على حريات الآخرين ، ونتيجة لهذه الحرية لم يعد هناك ضابط أو متصرف .

ومن تعاسة الحضارة المادية ، أنها عكست كرائم النعم ، والملكات التي أنعم الله بها على الإنسان عكسا أسقط الإنسان في وديان الهلاك والدمار وسقط بالإنسانية دون عالم الحيوان ، فراجت خسائس العادات ، وذمائم الصفات من الاختلاط الفاضح ، والشذوذ في السلوك ، وظواهر الخنفسة والهيبز ، والارتخاص ، والابتذال ، والخلاعة[1] .

لقد تقدمت العلوم بلا ريب ، ولكن هذه الحضارة التي علمت الناس كيف يسبحون في الماء بالغواصات الجبارة ، وكيف يطيرون في الفضاء ، وفي الهواء ، وفوق السحاب ، عجزت حتى اليوم عن تعليم ناسها وشعوبها كيف يسيرون على الأرض في طريق الخير بغير عوج والتواء ، أو تعثر .

إن الغرب اليوم في حيرة بالغة ، وقلق واضطراب شاملين ، وكل ذلك يأخذ عليهم عقولهم وقلوبهم ، وأصبح الضمير هناك لا يطمئن إلى عقيدة أو مبدأ أو نظام فلم يعد يجد اليقين الذي يفيء إلى ظله ، في جو من الهدوء والراحة والاستقرار[2] .

والبشرية اليوم في مفترق الطريق ، فهناك اضطراب في الأفكار وحيرة في الاتجاهات ، وزعزعة في النظم ، وخواء من العقيدة ، أصبح يجرفها دولة بعد دولة ، وشعبا بعد شعب ، إلى هاوية المادية وعلى كل فقد وقع المحذور ، وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها ، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ،

---

(١) د . أحمد عبد الرحيم السايح ، أضواء على الحضارة الإسلامية ، ص : ١٩١ - ١٩٢ ، ط : مكتبة دار اللواء بالرياض ، سنة : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

(٢) د . محمد يوسف موسى ، الإسلام والحياة ، ص : ٢٦ .

ووجهة نظر ، ونفسية ، وعقلية ، وأخلاق ، واجتماع ، وعلم ، وأدب ، وسياسة ، وحكم ، وكان ذلك تدريجياً ، وكان أولاً ببطء وعلى مهل ، ولكن بقوة وعزيمة فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون في الكون ، نظرا مؤسسا على أنه لا خالق ولا مدبر ، ولا آمر ، وليس هناك قوة وراء الطبيعة ، والمادة تتصرف في هذا العالم ، وتحكم عليه ، وتدبر شئونه ، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعي ، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكي بحت ، وسموا هذا نظريا علميا مجردا[1] .

وليس الحال في الشرق ، والبلاد العربية بأحسن حالا منها كثيراً في الغرب ، فقد انحرف الكثير عن الدين في غير قليل من شئون الحياة[2] فقد تأثرت بعض المجتمعات بالغزو الحضاري الغربي ، وليس ذلك التأثير في الجانب العلمي والصناعي والعمراني ، ولكن – للأسف – وفي أسوأ المساويء وأصبح البعض يقلد الغرب في كل ما هب ودب ، وما من ظاهرة من الظواهر العفنة ، ولا موضة من موضات العصر ، إلا ولها في بعض المجتمعات صدى واهتمام .

لقد أفلست الحضارة الغربية ، برغم التقدم العلمي الهائل الذي وصلت إليه ، وبدأ الإنسان الأوربي يهرب من حضارته ، لأنه لم يحس في ظلها بالسعادة ، ولم يحس في مجتمعه الأمن والأمان والاطمئنان ، فقد انتشرت عصابات القتل ، والخطف ، والتخريب ، والإرهاب ، وتفاقم خطر الجريمة ، وازداد عدد المجرمين ، وامتلأت البلاد بجماعات العربدة والفجور وأقيمت نوادي العراة وأبيح في غير استحياء الشذوذ الجنسي ، إلى غير ذلك .

وأخيرا لهذا وغير هذا : لجأ الغربيون إلى الهروب من معتقداتهم الدينية ، ومذاهبهم الاقتصادية ، بل من كل حضارتهم التي افتتنت بالعلم والعقل ،

---

(١) أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ ، ص : ١٧٨ ، ط : دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة : ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .

(٢) د . محمد يوسف موسى ، الإسلام والحياة ، ص : ٢٧ .

وأصبحت شقية عمياء لا تبصر ، طارت بحضارتها إلى الفضاء ، وانحدرت بالشباب الغربي إلى مدارك السفالة والانحطاط ، ليعيشوا في حياة الجنس والخمر ، ونوادي العراة .

والشيوعية في الشرق وفي الغرب قد أعلنت فشلها ، وبات الناس في جحيمها يئنون جوعا ، ويبكون توجعا ، ويتألمون من شدة الكبت ، وفقدوا كل كرامة وكل شيء .

وهكذا يهرب الأوربيون من نظمهم الوضعية ، ويهرب الشيوعيون من جحيم الاشتراكية .

وهكذا تعجز النظم البشرية ، والقوانين الوضعية ، عن تقديم أي عون للإنسان ، أو الأخذ به إلى الطريق السليم ، مما يؤكد ضرورة الإسلام للمجتمعات الإنسانية ، لأن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية جعلت منه – عند التطبيق – قوة فعالة ومؤثرة ، بل إن فاعلية الإسلام شملت حياة الأفراد ، وحياة الجماعات في جميع الجوانب .





أثر العوامل السابقة في انتشار الإسلام

العوامل التي عرضنا لها في موضوع ظهور الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ، كان لها الأثر الواضح في انتشار الإسلام ، وإقبال الناس عليه ، والدخول في دين الله أفواجا .

ونحن نوقن أن حكمة الله لا يدركها بشر ، وفي الوقت نفسه نلمس أن في مقدور البشر أن يعلنوا شيئا من هذه الحكمة ، على حسب ما يظهر لهم خصوصاً بعد ما تنكشف بعض أسرار الحكمة .

لقد أظهر الواقع الذي مضى زمنه ، قيمة هذه الاختيارات للدعوة الإسلامية ولذا يجدر أن نتعرف على أثر هذه العوامل في انتشار الإسلام عاملا عاملا ، لتتضح الرؤية ويتحقق الهدف .

أولاً : أثر اختيار الرسول ﷺ ليبلغ الإسلام في انتشار الإسلام :

لقد عرفنا أن النبي ﷺ ينتسب إلى بطن بني هاشم ، وهم بطن يقطن مكة ، ويرتبط مع سائر بطون قريش في قرابة ، ولذلك فعروبة النبي ﷺ ثابتة موطنا وجنساً ولغة ، وقد أكد القرآن الكريم هذا في آيات كثيرة ، فقوله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ إلى ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[1] يشير إلى أن مكة هي قرية النبي وموطنه ، إذ ما أضاف القرية إلى غيره ﷺ[2] . وقد دفع الله عن كثير من أهل مكة العقوبة في الدنيا ، لبركة

(١) سورة محمد ، آية رقم ١٣ .
(٢) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ١٢٠ .

وجود الرسول نبي الرحمة[1] . وقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ..﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾[3] ﷺ لأن الأمية صفة للعرب ، في مقابلة أهل الكتاب وهو أمي منهم[4] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5] .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[6] يشير إلى لغة النبي ﷺ العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، فجعلها أكثر رسوخا .

وهذه العروبة المكية ، تعطي للدعوة الإسلامية قوة معينة ، لأن مكة هي أم القرى ، وبها الكعبة وقد درج الناس والعرب على تقديرها ، والمشاركة في مواسمها الدينية والتجارية والأدبية ، ويعدون هذه المشاركة واجباً تجاه مكة وأهلها القرشيين الذين ينظمون أمور الكعبة ، ويحرسون الحجيج ، ويطعمونهم ، وهم لجوارهم للكعبة أهل الله ، يعرفونه فيدافع عنهم ، ويخصهم بالفضل من دون الناس[7] .

وبنو هاشم بطن من أوسط بطون قريش ، ويتصل بهم جميعا ، وتلك ميزة لداعية يظهر فيها ، إذ يجد نفسه مرتبطا بقربى مع سائر البطون وهذا ما كان ، ولقد أخرج البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنه – « أن النبي ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلاَّ وَلَهُ قَرَابَة فِيه » .

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ :٧٠ ، ص : ٢٩٤ .
(٢) سورة الجمعة ، آية رقم ٢ .
(٣) سورة الأعراف ، آية رقم ١٥٧ .
(٤) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ١٢٠ .
(٥) سورة يوسف ، آية رقم ٢ .
(٦) سورة مريم ، آية رقم ٩٧ .
(٧) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ١٢١ .

والقربى النسبية تدفع بدورها إلى الوحدة ، والاتجاه النفسي الواحد وتجعل رأي الفرد منها مسموعا مطاعا ، خصوصا في عصر كثرت فيه التكتلات القائمة على العنف والقوة ، لدرجة أن عرب مكة جاءوا في البداية ، وفي هدوء إلى أبي طالب ، وشكوا إليه أمر محمد ﷺ بأنه : « سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا »[1] وبهذا كان في نظرهم يفرق ولا يجمع ، وبذلك تضعف قوتهم ، وكان الأمل أن يكونوا ومعهم محمد ﷺ يدا واحدة حتى لو جعلوه أغناهم أو ملكاً عليهم »[2] .

لقد كان من التوضيحات الإلهية للعرب وأهل مكة : أن الله بعث فيهم رسولا منهم – وقد كرر القرآن الكريم ألفاظ ﴿ من أنفسهم ﴾ و ﴿ منكم ﴾ و﴿ منهم ﴾، وذلك في معرض مخاطبتهم ، إذ يقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾[3] ويقول – سبحانه وتعالى : ﴿ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴾[4]. وقال تعالى : ﴿ ...جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾[5] ، وكونه – صلى الله عليه وسلم – منهم وفيهم ، لايقتضي اختصاصه بهم ، وإنما الذي تقتضيه هذه الإشارات (من أنفسهم) و(منكم) و (منهم) أن يكون العرب هم أولى الناس باتباعه ، وأسرعهم إلى ذلك ، فهو أشد الناس حنوا عليهم وأكثرهم أملا في هدايتهم ، لارتباطه بهم بأكثر من طريق ، (وله أعمام وأخوال وعمات وخالات من سائر بطون مكة)[6] كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ : ١ ، ص : ٢٧٧ .
محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص : ١٤٦ .
(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ : ١ ، ص : ٣١٣ – ٣١٤ .
محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص : ١٥٣ .
(٣) سورة التوبة ، آية رقم ١٢٨ .
(٤) سورة آل عمران ، آية رقم ١٦٤ .
(٥) سورة النحل ، آية رقم ١١٣ .
(٦) ابن القيم ، زاد المعاد ، جـ : ١ ، ص : ٢٦ – ٢٧ ، ط : المطبعة اليمنية بمصر .

وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ[1] ﴾ .

فهذه الآية الكريمة : تدل في صراحة على وجود أعمام ، وعمات وأخوال وخالات له في مكة ، وأنه تزوج من بناتهم المهاجرات بعد الهجرة ، وبالبحث في زوجات النبي – صلى الله عليه وسلم – القرشيات ، نجد أنهن لسن من بنات بني هاشم ولكنهن من بقية البطون ، فعائشة من بطن « تيم » ، وحفصة من بطن « عدي » وأم حبيبة من بطن« بني أمية » ، وأم سلمة من بطن « بني مخزوم » ، وسودة من « بني زمعة » ، وزينب من « بني أسد » .

فثبت بذلك أن القرابة كانت موجودة بين بطون مكة وبين بني هاشم وأن للنبي – صلى الله عليه وسلم – أخوالا وخالات وأعماما وعمات من سائر البطون ، لذا جاء الأمر من الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم – بأن ينذر الأقربين ، قال تعالى:﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[2] فدعا محمد عشيرته إلى طعام في بيته ، وحاول أن يحدثهم ، داعياً إياهم إلى الله[3] . ثم انتقل محمد –صلى الله عليه وسلم – بعد ذلك بدعوته من عشيرته الأقربين إلى بطون أهل مكة بطنا بطنا[4] .

قال تعالى :﴿ لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[5] فهم أقرباؤه ، لايطلب لهم إلا الخير والمصلحة ، وعليهم ألا يعصوه ، وهو لايسألهم

---

(١) سورة الأحزاب ، آية رقم ٥٠ .

(٢) سورة الشعراء ، آية رقم ٢١٤ .

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ : ٦ ، ص : ١٧٦ – ١٨١ .
السيوطي ، الدر المنثور ، جـ : ١٦ ، ص : ٣٢٤ – ٣٢٩ .

(٤) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص : ١٤٢ .
محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي ، جـ : ٢ ، ص : ٦٤ ، ط : المكتب الإسلامي بيروت ، سنة : ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

(٥) سورة الشورى ، آية رقم ٢٣ .

غرما أو مقابلا . وكل مايرجوه أن يؤدوا حق القرابة الموجودة بينهم وبينه .

ولقد كان لهذه القرابة أثرها الواضح في استجابة العرب لدين الإسلام إذ عرفوه بأنه صاحب النسب الرفيع العالي ، ومن هنا لايأتي للناس إلا بما يأخذ بأيديهم إلى الصلاح . وعرف أقرباؤه أنه منهم وإليهم ، وهم أولى الناس باتباعه والاهتداء بما جاء به من عند الله – سبحانه وتعالى – فكانوا أسرع الناس قبولا للحق والهدى .

ثانيا : أثر اختيار الأمة الأولى للإسلام في انتشار الإسلام :

لقد كان اختيار الأمة الأولى للإسلام له أثره الواضح في انتشار الدعوة الإسلامية ، فهؤلاء العرب لم يلبثوا طويلا في عنادهم ، بل آمنوا بالدعوة والقرآن ، وأسلموا أمرهم لله . فصنع منهم في وقت قصير لايذكر خير أمة أخرجت للناس ، تتحلى بمكارم الأخلاق ، وعظائم السلوك ، وتسعى في كل مكان لهداية البشر على نهج القرآن الكريم ، يقول مصطفى صادق الرافعي – رحمه الله – : « فالقرآن الكريم بتمكنه من فطرة العرب على وجهه المعجز ، قد نزل منهم منزلة الزمان في عمله وآثاره ، لأن الذي أنزله بعلمه وقدره بحكمته إنما هو خالق الزمن نفسه ، فهدم نفوس العرب ، وكان هدمه بناء جديدا جعل الأمة نفسها قائمة على أطلال نفسها »[1] .

إن الدعوة الإسلامية أثمرت أكلها بظهورها في الأمة العربية إذ ناسبتها طبيعتهم البدوية الحضارية ، وأخلاقهم الرفيعة ، وشجاعتهم الحليمة الوفية ، وذكاؤهم الحاد ، وفهمهم الدقيق ، وحافظتهم القوية ، إذ جاءت الدعوة إلى كل هذه المزايا فنشطتها وسمت بها ، وأزالت منها السلبيات الموروثة ، فوجد العرب أنفسهم – بعد الإسلام – تلقائيا يبذلون حماسهم وقوتهم للدعوة الإسلامية ، ويعطون

---

(١) مصطفى الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص : ٨٦ ، ط : الخامسة دار الكتاب العربي ، بيرت ، سنة : ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م .

شجاعتهم وإمكاناتهم لأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي خدمة دعوته فتحركوا إلى كل مكان من أجل نشرها ، تاركين كل مايهمهم ، وأصبح تعصبهم اندفاعا لتنفيذ أوامر الدعوة الإسلامية وتعاليمها وكان لهم من استعدادهم ما جعلهم يستفيدون بالدعوة ، ويفيدونها[١] .

ولقد كان للبيئة العربية في شبه الجزيرة أثرها الكبير في الحركة العربية لاسيما من الناحيتين : الاجتماعية والسياسية ، ولقد اتصل ذلك بالبيئة في معناها الأعم والأشمل من ظروف الأرض والمناخ والنبات ، بل والحيوان أيضا[٢] .

ولقد كان جليا في حكم التاريخ ، وبنزول القرآن كله في جزيرة العرب أن هذه الخصائص التي نهض بها بيان العرب ، ونبتت أخلاقهم وانتهت إلى الله حكمتهم ، لم تكن مما توفر لأمة في غير جزيرة العرب ، حتى نزل القرآن الكريم ، وحتى انطلق لها صحابة الرسول الكريم ، في مد الإسلام للتحرير وإشرافه للتنوير والتغيير ، فكان حفظ القرآن بتعلم لغة العرب ، والجهاد حول القرآن ، والجهاد بالقرآن ، طريق الإثبات لهذه الخصائص الإنسانية من خلال حركة التعريب الواسعة ، التي صاحبت انتشار الإسلام[٣] .

فالعرب قد جمعوا بين فصاحة اللسان ، وحكمة العقل ، وجرأة القلب ..لقد اجتمعت الفصاحة والبلاغة في القول إلى حد الارتجال ، ونطقوا بالحكمة السائرة ، التي توارثها الأجيال من بعدهم ، تلك الحكمة البعيدة عن الخرافة والوهم ، وإنما هي خلاصة تجارب الحياة ، والتي تعبر عن الإنسان في كل مكان ، وكانوا رجال حرب ، لاتضارعهم أمة في شجاعتهم وبسالتهم ، ومن هنا :

(١) د / أحمد غلوش – الدعوة الإسلامية – ص : ١١٣ .

(٢) د . سليمان حزين ، المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية ، جـ : ١ ، ص : ٣٨٧ ط : مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، سنة : ١٣٨٣هـ – ١٩٦٢م .

(٣) أحمد موسى سالم ، لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب ؟ ص : ٣١٩ .

اجتمعت لهم الأصول العميقة لمواهب الإنسان كلها[1] . ما كان له أثره في انتشار الإسلام في المشارق والمغارب ، إذ قام العرب بدورهم في تعريف المجتمعات المختلفة برسالة الإسلام .

ثالثا : أثر عناية الله في اختيار المكان لظهور الدعوة في انتشار الإسلام :

لقد كان لعناية الله – سبحانه وتعالى – في اختيار المكان لظهور الدعوة أثر واضح في انتشار الإسلام فيما حول مكة ، قال تعالى : ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[2] وهكذا يتقرر من الآية الكريمة أن أم القرى هي مركز الوسط الأمين ، لأنها تنذر بما نزل فيها من حولها ، إذ لو كانت غير ذلك ، وفي جانب وإلى ناحية ، ما كان الوجود من حولها[3] .

لقد كان بحق هذا المركز الوسط مصدر إشعاع لمن حول أم القرى وكان العالم حول أم القرى ، فانطلقت الرسالة الإسلامية ، لتنير السبيل وتهدي الضال .

لقد اختار الله – تعالى – هذا المكان العالمي« مكة » وأقدس وأقدم بيت هناك « الكعبة » لتكون مناخا للدعوة الإسلامية الخاتمة على يد محمد – صلى الله عليه وسلم –[4] .

وإعداد أول بيت وضع للناس ، ليكون منطلقا ومناخا لحياة آخر دين خاتم للرسالات والديانات قبل ظهوره ، يتفق تماما مع عهد الله –تعالى – المأخوذ على أنبيائه ، لنصرة دين الإسلام ، قبل ظهور محمد – صلى الله عليه وسلم – إلى عالم الدنيا ، بقوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن

---

(١) عبد القادر أحمد عطا ، لماذا بعث الرسول في مكة ؟ ، ص : ٤٦ – ٤٧ .

(٢) سورة الأنعام ، آية رقم ٩٢ .

(٣) د . عبد الرزاق نوفل ، أم القرى مركز الوسط الأمين ، ص : ٤١ ، مقال بمجلة العرب بباكستان ، العدد الصادر في رجب ، وشعبان ، من السنة الحادية والخمسين .

(٤) عبد القادر أحمد عطا ، لماذا بعث الرسول في مكة ٢ ، ص : ٨ .

كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1] .

فالمكان الذي ظهرت فيه الدعوة أحاطه الله بمجموعة من الظروف جعلته مكانا ملائما للدعوة الخاتمة ، لكي تنطلق في كل اتجاه ، وقد انطلقت الدعوة الإسلامية هنا وهناك ، فكان صداها في كل الأنحاء .

وترجع أهمية المكان : إلى أن الجزيرة العربية ، ملتقى مواصلات هام بين بقية أجزاء آسيا وأفريقيا ، التي تواجه أوربا[2] .

وأثر الموقع الجغرافي الذي بدأت منه الحركة العربية الإسلامية سواء فيما يتصل بالبقعة التي نزل فيها الإسلام من الجزيرة العربية(الحجاز) أما بالنسبة للجزيرة العربية ، التي توسع منها العرب ، وانتشر الإسلام إلى العالم الخارجي ، فقد كان لنزول الإسلام بالحجاز بالذات – دون غيره من سائر أجزاء الجزيرة العربية ، وأركانها – أثره البعيد ، والباقي على مر الزمن ، بل أثره من حيث توحيد الجزيرة العربية في حركة واحدة ، مما ميز الإسلام على غيره من الأديان السماوية السابقة في المنطقة ، كذلك كان لارتباط الإسلام بسكان الجزيرة العربية ، والموقع الجغرافي لهذه الجزيرة أثره البعيد والباقي على مر الزمن في انتشار الإسلام شرقا وغربا ، بالبر والبحر[3] .

رابعا : أثر عناية الله في اختيار الزمان لظهور الدعوة في انتشار الإسلام :

لقد عرضنا – ونحن نتحدث عن عناية الله في اختيار الزمان لظهور الدعوة –

---

(١) سورة آل عمران ، آية رقم ٨١ .

(٢) د . محمد مصطفى النجار ، عرب الجزيرة بين الجاهلية والإسلام ، ص : ٤ ط : دار الطباعة المحمدية .

(٣) د . سليمان حزين ، المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية ، جـ : ١ ، ص : ٣٨٦ .

أن هذا الزمان ساد فيه صراع عام ، وحروب متوالية ، ولاشك في أن الحروب المتوالية المحلية والعالمية ، والخصومات المتتابعة ، المذهبية والعقدية ، والتغيرات المتلاحقة ، القومية والعنصرية ، كل ذلك قد مهد للإسلام طريقه الفطري في الأرض[١] . ولعلنا ندرك بوضوح أن الزمن[٢] عامل خارج عن ماهية الإسلام ، لاصلة له بجوهره ، ولكنه ذو أثر فعال في دفع عجلته ، والدعاية لرسالته فإن احتكاك المسلمين بغيرهم بسبب هذه الصراعات والحروب ، كان مدعاة لتبادل الآراء وتداول النقاش ، واستعراض ما له من مزايا وأخلاق وتقاليد .

إن صراعات هذا الزمن تميزت بالشمول والعمق ، ولذلك كانت نهايتها أمنية صادقة على مستوى هذا الشمول وهذا العمق .

ومما يجدر أن نعرض له في إيجاز ، أن هذا الزمن حظي بوجود الحكماء من العرب ، وكان الطابع العام لهؤلاء الحكماء هو البحث عن الدين المستقيم والتطلع إلى الهداية السماوية .

وحكماء العرب هؤلاء هم : العلماء الذين كان يرجع إليهم فيما يعرض من مشاكل ، وهم في الجملة أعظم العرب حظا في الثقافة[٣] .

وإذا كان ما سبق يعد من الجوانب المحدودة برغم كثرته ، فإن قريشا قد غمرتها روحانية ، ففكرت في أمر الدين وقداسته ، والبيت وحرمته ، وبعد تأمل وتدبر ابتدعت رأي الحمس . والحمس : جمع أحمس ، والأحمس : الشديد الصلب في

---

(١) علي عبد الرحمن الأمين ، بحث بالمؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر جـ : ١ ، ص : ٣٥١ .

(٢) وبيان ذلك : أن الله – سبحانه وتعالى – هو الذي اختار الإسلام ليكون في هذا الزمن الذي أشرقت فيه رسالة الإسلام . ولما كان الناس في هذا الزمن لهم ما وصفنا . كان للزمن أثر كبير في انتشار الإسلام ، فكان عاملا مهما .

(٣) د . عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفي في الإسلام ، جـ : ١ ، ص : ٣٨ ، ط : الأولى ، =

الدين والقتال[1] .

لقد وصل النضج الفكري في هذا الزمن إلى مستوى يناسب ظهور الدعوة الإسلامية ، التي جاءت لترتقي بالإنسان إلى معالم الحق ، وتأخذ به إلى علائم الكمال المنشود .

لقد كانت الإنسانية تتطلع زمنا طويلا إلى دين جديد ، عادل رحيم وكان هذا الدين هو الإسلام .

لقد أفلست نظم الإنسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وأدت إلى صراع في كل بقعة من بقاع الدنيا ، مما جعل الإنسانية تتطلع إلى مايقيم لها إنسانيتها ويحفظ لها كرامتها .

لقد كانت سنن الاجتماع البشري قد بلغت بالإنسان أشده ، وأعادته الحوادث الماضية إلى رشده ، فجاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرع الفهم واللب .

خامسا : أثر حاجة الإنسانية إلى الإسلام في انتشار الإسلام :

الدين يجيء في أثر الدين ، والرسول يتبع الرسول ، وكل دين له ناسه المحدودون ، وزمنه الموقوت ، حتى بعث محمد – صلى الله عليه وسلم – بدين للناس جميعا ، والإنسانية عامة ، وذلك حين قضت الضروزة المطلقة بإرساله وكان لامصرف عن بعثته ، ليخرج العالم كله مما كان يتخبط فيه من ظلم وضلال وباطل[2] .

ولولا هذه الضرورة المطلقة ، ما اتصلت السماء بالأرض برسالة جديدة هذا

= الأنجلو المصرية ، سنة : ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م .

(١) المصدر السابق ، جـ : ١ ، ص : ٣٢ – ٣٣ .

(٢) د . محمد يوسف موسى ، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ، ص : ٢٢ ، ط : دار الفكر العربي ، بيروت .

الاتصال الذي هو خرق لقوانين الطبيعة ، فلا يكون إلا عند حاجة البشرية الملحة المتلهفة لدين جديد .

نعم . كان العالم في حاجة ملحة لدين جديد ، بعد أن خفت صوت الرسل السابقين وضاعت معالم الرسالات الإلهية ، التي أرسلها الله لعباده لافرق في ذلك بين بلاد العرب ، إذ يوجد بيته المحرم ، وبلاد الروم المهد الثاني للمسيحية ، وفارس ، إذ كانت المانوية والزرادشتية ، والمزدكية ، وغير هذه البلاد وتلك من أقطار العالم المختلفة . فكان من الطبيعي أن يستتبع هذا الفساد في العقيدة ، وتلك الفرقة في الدين ، والاضطهاد للخارجين على مذهب الدولة والانحلال في الأخلاق ، والفساد في الإدارة ، والظلم في المجتمع .

وهذه الوجوه من الفساد ، كان لها بلا ريب أثرها في تقبل الإسلام في كثير من نواحي الامبراطورية الرومانية بقبول حسن بين المسيحيين أنفسهم إذ وجدوا فيه متنفسا لهم ، ومخلصا مما كانوا فيه من عنت وكرب[1] .

نعم : كان من رحمة الله – كما يقول محمد عبده – بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برسول يوحى إليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التي أظلت رؤوس جميع الأمم[2] .

إن الحالة الدينية فضلا عن الحالة الاجتماعية الظالمة ، التي كانت عليها الأمم قبل الإسلام ، كانت تتطلب إنقاذا سريعا ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الظلم إلى رحابة العدل ، فكان هذا المنفذ هو الإسلام[3] .

والإنسانية في عصرنا هذا أشد ما تكون حاجة إلى الدين الإسلامي فإن التقدم العلمي المادي الذي غزا الفضاء ، لم يستطع أن يحقق للناس السعادة والطمأنينة التي ينشدون ، بل زادهم تكالبا على المادة ، وتنافسا جشعا جر إلى حروب .

---

(١) المصدر السابق ، ص : ٢٥ .
(٢) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص : ١٨١ .
(٣) د . محمد يوسف موسى ، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ، ص : ٢٦ .

فالذي نرجوه إذن لإصلاح هذا العالم الذي نعيش فيه ، بعد أن أفلست كل نظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وبعد أن نجمت فيه فلسفات تدعو لإنكار وجود الله ، والتحلل من المسئولية ، وفاضل الأخلاق[1] .

إنه لاشيء غير هذا الدين الإسلامي ، فلا خلاص للإنسانية إلا بالرجوع إلى الدين الحق ، ولن نجد هذا الدين – كما أنزله الله – واضحا ميسرا ، خاليا من الغموض والتعقيد ، سليما من التحريف والتبديل ، إلا في الإسلام خاتم الرسالات الإلهية ، فهو دين الروح والمادة ، والقلب والعقل ، والفرد والجماعة ، والدنيا والآخرة[2] .

فإلى هذا الإسلام في عقيدته وشريعته ، في عباداته ومعاملاته ، في نظمه وأخلاقه ، ندعو البشرية كلها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[3] .

هذا الدين لايزال العالم في حاجة شديدة إليه ، ولا خلاص للإنسانية مما تعانيه إلا بالإيمان به ، فهو الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر ، والداعي إلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم .

وبعد :

فهذه حقائق علمية مسلمة :

– اختيار الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليبلغ الإسلام .
– اختيار الأمة الأولى للإسلام .
– عناية الله في اختيار المكان لظهور الدعوة .
– عناية الله في اختيار الزمان لظهور الدعوة .

---

(١) د . محمد يوسف موسى ، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ، ص : ٢٧ .
(٢) محمود شلتوت ، من توجيهات الإسلام ، ص : ٢٤ .
(٣) سورة النساء ، الآيتان : ١٧٤ – ١٧٥ .

– حاجة الإنسانية إلى الإسلام .
–أثر العوامل والاختيارات السابقة في انتشار الإسلام .

هذه الحقائق الأصيلة ، قد بينت لنا فضل الله – سبحانه وتعالى – على عباده ، ورحمته بهم ، فكان ظهور الإسلام ظاهرة تجمع بين العقيدة والحركة في حيوية ، لاينضب نبعها ، كما تفردت تلك الظاهرة بالجانب الروحى والعقدي الذي تمثل في انتشار الإسلام دينا واحدا ، وعقيدة أقوى في تماسكها ، وتقارب مذاهبها من أية عقيدة قائمة .

علم الله –سبحانه وتعالى –أن عباده لاينتفعون بمدد ، سوى الدين وهو المدد الذي طواه الله في قوله للملأ الأعلى منذ التدبير فى خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1] . قد وضعه الله أساسا لحياة الإنسان منذ خلقه ، وعلق به عمارة هذه الدنيا : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ • قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[2] .﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾[3] .

هذا المدد هو الهداية السماوية ، التي تعهد الله بها عباده ، وآمنت به الأرواح الصافية المؤمنة بمهمة الإنسان في هذه الحياة .

---

(١) سورة البقرة ، آية رقم ٣٠ .
(٢) سورة البقرة ، الآيتان : ٣٧ – ٣٨ .
(٣) سورة طه ، آية رقم ١٢٣ .

وكان مما طلب إبراهيم وولده إسماعيل من ربهما في إسعاد ذريتهما ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ... ﴾(٤) . طلبا منه ذلك ، وهما يعلمان أن ذريتهما لاتخلو من تفكير عقلي ، تستطيع أن تتخذ منه منهج حياتها ، وتنظيم شئونها ، لعلمهما أن الفكرة الإنسانية مهما سمت ومهما تجرد أصحابها من الأغراض ، فهي بمكان من الضعف .

وعلى هذا الأساس تعهدت العناية الإلهية الإنسان في جميع أطواره ترشده إلى وسائل الإصلاح التي يحتملها استعداده ، فأرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب وسارت في هذا السبيل ، حتى وصل الإنسان إلى درجة من الاستعداد العقلي والنضوج الفكري ، والتفتح الذهني لرسالة عامة خالدة ، تضمنت بنصوصها وإشاراتها جميع ما يحتاجه الإنسان .

وبهذه الرسالة الخالدة ، بعث الله محمدا – صلى الله عليه وسلم – بعد أن هيأ له الزمان ، والمكان ، واصطفاه ، واختاره ، وأنزل القرن الكريم بعد أن جعل العرب أهلا للغة القرآن ، ليبلغوا الناس القرآن ، وينشروا في الأرض الإسلام . وبه أكمل الله هدايته ، وأتم على عباده نعمته ، وكان محمد – صلى الله عليه وسلم – خاتم الأنبياء والرسل .



(٤) سورة البقرة ، آية رقم ١٢٩ .

الفهرس



1990/9828
I·S·B·N
977-5083-11-7



هذا الكتاب

الدين يزكي النفس ويطهرها، ويقيم في جواسها الوازع القوى الذى يحول دائماً بين الإنسان وبين نوازع السوء والضلال فيه؛ وذلك أنه يشعر دائماً بمراقبة الله له في كل شيء، ومن هنا تركو نفسه بفعل الخير والإقبال عليه، والبعد عن الشر والإعراض عنه، وهذا أسمى ما ينبغى أن تسعى الإنسانية إليه.

فالإنسانية بحاجة إلى الدين؛ لأنه جزء من فطرة الإنسان وطبيعته، ولا يمكن لإنسان عاقل أن يستغنى عن جزء من فطرته وكيانه، فهو الوسيلة الوحيدة التى تأمن مخاطرها، وتضمن نتائجها لتحقيق سمو الحياة الإنسانية.

فالدين يقوم نظاماً يدعو إلى الفضيلة واعتناقها، كما يقيم دستوراً حكيماً يحفظ للإنسان إنسانيته، كما يحفظ له نفسه وماله.

وعلى ذلك فإن احتياج الإنسانية عقيدة وسلوكاً إلى الدين نزعة فطرية وأصيلة رُكّبت فيه، وفطر عليها. ومن هذا المنطلق يصف القرآن الكريم الدين بأنه الحياة، وبأنه النور الذى يضيء للسالك الطريق، قال -تعالى-:

﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾

وبعد: فهذا الكتاب الذى نقدمة للعالم اليوم إنما يجلّى فى وضوح -ودون تحيز- حاجة الإنسانية إلى الرسالة الخاتمة، التى أرسل الله بها خاتم رسله وأنبيائه، وخير خلقه: محمد -ﷺ- والتى قال عنها -ربنا سبحانه وتعالى-: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾.

فما أحوج الإنسانية اليوم -بعد أن أفلست نظمها وقوانينها الوضعية- إلى تلكم الحلول الإلهية التى تكشف عنها ويلاتها، وتجمع لها شتاتها!!

والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم النصير.

الناشر

